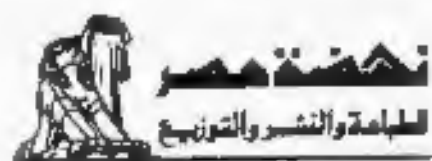


# دَاعِيَ السَّمَاءِ

بلال بن رباح «مُؤَذِّنُ الرَّسُولِ»

عباس محمود العقاد







# دَاعِيَ السَّمَاءِ

بِرَّالِ بْنِ رَبَاعٍ  
مُؤَذِّنُ الرِّسُولِ

عَبَّاسُ مُحَمَّدٍ الْعَفَّاقِ



مكتبة دار الفکر  
للطباعة والنشر والتوزيع





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# كلمة تصدير

بين الحريين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها . وعملت فيها السياسة غاية عملها . وأقحمتها الدخامة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

وقد كانت للإسلام كلمة في إنصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العنصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي ﷺ رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول . فكان أثراً عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين .

فالكثابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من سلسلة العبقريات والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية القائمة .

ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء .

عباس محمود العقاد

سنة ١٩٤٥





## مسألة العنصر

مسألة العنصر - أو الجنس - مسألة اجتماعية كثيرة الورد على ألسنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية . ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رءوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره . ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الممجية ، ثم كالت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصدق ذلك في القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » . . . (آية ١٣) فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدته ومدار الفخر فيه . فتشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما تشاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فن قدیم الزمن یفخر کل عنصر بمراقته وامنیازه علی غیره . ویزیده

معروف في عداد المتحجر والمساهة أن نتاج له فرصة العنة والاستعلاء، فرة  
من الرمن فإن كانت العلة وثمة حاصره فهي آية المتحر وحجة  
سأهده وإن كانت عارده دائره فهي عده علامة على عرقه أصه  
وحدائه غيره . وأنه أحق من ذلك انغير بمتحر وسأهده وير خدمته  
لخطوط والمصادغات في حاصر أمره .

للم تعرف أمة قديمة فقد خلت من مفاخرة بعصرها واعتداد بشتاتها  
وبيتها وبلادها . والذي قال

بلادى وإن حارته غنى عميرة وأهل وإن حصوا على كرام  
قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجهها وهم يرى ولا يرى  
ليس من اللارم أن تكون البلاد طيب البلاد ولا أن يكون الآن كرم  
الناس بمتحر هم برحل لدى ينسى إليهم وتحس سمعتهم عليه وسمعتهم  
عليهم . فبه ليعلمهم ويحبهم فرأى من لمهانه إلى حصه د تقصرو  
عن شأو المناصر الأخرى في التعظيم والتسجيل . فله فخرهم . إن  
عظموا مساهمة منه في فحارهم . وفاحرهم . إن هابوا دفعاً نهباً عنه إدا  
عترف بهمهم . ولا حساب للبحث أو لرأى في الحديث إلا بعد  
حساب العاطفة والشعور

كان لمصرى تقدم يؤمن بأنه هو الإنسان تكامل ثم تتلاحق لشعوب  
هذه إلى أن يأتي أبناء اليونان في المرتبة السابعة

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المهدب ومن عداه بربره  
لا يبوكون مكانه من المهم والحصاره

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الإنسان النبيل الكريم ومن عداه  
أعاجم لا يفقهون مديقات ولا يديرون بدين مروعة والأحساب

وكذلك كان أبناء هارس واحد والصين . بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر إلى نطاقها وإن تلاحق جميعاً في أصل يرب من الأحاب والأساب

وبقيت هذه الشبهة بين أهم الحصاره في العصر الحديث فاعتر ٣ الأوربيون على بناء القارت الأخرى ، ولكم لبثوا فيما بينهم يهاجر كل شعب منهم حارة بالعدادات والأحلاق والمآثر وإن تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة فليس أشد تماحراً بين الأوربيين من الطليد والإنسان والفرسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبما صرهم إلى مريخ مقارب من السلالات . ولكم تعلموا : نوحى المصلحة المنتفعة أن يجتمعوا فحرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه لأوربيون كافة . وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القار . محتباه بين القارات . وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر ٣ الأوربيون من عداهم من الشعوب الإسيانية ، وسموا تلك الرسالة « عب الرحل الأبيض » وأمانة الرحل لأبيض ، أو تسمته أمام الله هدية حقة الدين لم يبلغوا صلحهم من العلم والارتقاء

وصديق العام الإنجليزي حوليات هكلى حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوكون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح فقد سبقهم « أشعاء » من أنبياء إسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين « اسمعى لي أيتها الحرائر واصصعوا أيها الأمم من بعيد الرب من البطن دعاني . من أحشاء أمي ذكر سمي وجعل في بكسيف حاد في ظل يده حباتي وجعلني سها مرياً في كمانته أحمانى وقال لي أنت عدى إسرائيل الذي به

أَتَمَجَّدَ. أَمَا أَنَا فَقُلْتُ عِبَادًا تَعْبَتُ ، بَاطِلًا وَفَارِغًا أَقْبَيْتَ قُدْرَتِي لَكُم  
حَقِّي عِنْدَ الرَّبِّ وَعَمَلِي عِنْدَ إِلَهِي  
«وَالآن قَاتِ الرَّبَّ جَاهِلِي مِنَ الْبَطْنِ عِبَادًا لَهُ لِإِرْحَاجِ يَعْقُوبَ إِلَيْهِ  
فَيَصْغَمُ إِلَيْهِ إِسْرَائِيلُ فَاتَمَجَّدَ فِي عَيْنِي الرَّبُّ وَيُهَيَّيْ بِصِيرَ قُوَّتِي . فَقَارَ  
قَلِيلٌ أَنْ تَكُونَ لِي عَبْدًا الْإِقَامَةُ أَسْبَاطُ يَعْقُوبَ وَرَدَّ مَحْفُوظِي إِسْرَائِيلُ .  
فَقَدْ حَقَّنْتُكَ بَوْرًا لِلْأَنَمِ تَكُونَ خَلَاصِي إِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ هَكَذَا قَالَ  
الرَّبُّ قَادِي إِسْرَائِيلَ . . . »

فِرْسَانَةُ الرَّحْلِ الْأَبْيَضِ الَّتِي تَمَحَضُ عَنْهَا الْقُرُونُ الْتَاسِعُ عَشَرَ كَتَبَهُ لَمْ  
تَلْهَبْ بِأَصْحَابِهَا إِلَى أَعْدَاءِ مَنْ هَذَا الْمَدَى الْمَدَى سَقَطَهُمْ إِلَيْهِ بِوَيْسِ إِسْرَائِيلَ  
قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ بِسَعَةِ قُرُونٍ .

• • •

وَطَلَّتِ الْمَعَاحِرُ الْعَصْرِيَّةُ كُنْهًا مِنْ قَبِيلِ هَذِهِ الْعَادَاتِ الْأَحْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي  
لَا يَرْجِعُ فِيهَا إِلَى قِيَاسٍ مُطَبَّقٍ وَلَا مَوْرِدَةٍ عَلَيْهِمْ . فَكَانَتْ أَشْهُ شَيْءٍ  
مَعَاحِرَاتِ الصَّبِيَّانِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِأَنَانِيَّتِهِمْ وَأَمَهَاتِهِمْ وَأَحْوَاتِهِمْ وَحَيْرَاتِهِمْ  
وَيَوْهَمِ الَّتِي يَسْكُنُونَهَا وَمَدَمُ الَّتِي يَشَاوِرُونَ فِيهَا وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَّصِلُ بِهِمْ  
وَتَعَقَّدُ فِيهِ بِمَقَابِلَةِ بِيَهُمْ وَيَبِينُ غَيْرَهُمْ . وَهَجَوِي مَعَاحِرَ الْأَحْنَسِ مِنْ هَذَا  
الْقَبِيلِ أَنَّ كُلَّ حَنْسٍ هُوَ أَفْصَلُ الْأَحْنَسِ لِعَبْرَتِهِ . وَبِئْسَ هَذَا مِنْ  
الْقِيَاسِ الْمُنْطَلِقِ وَلَا الْمَرَارَةِ الْعِلْمِيَّةِ لِي شَيْءٍ

لَمْ أَسْجِ بِطَاقِ الْبَحْثِ الْعَمِيِّ فِي الْقُرُونِ الْتَاسِعِ عَشَرَ فَأَدْخَلْتُ لِقَوَارِقِ  
بَيْنَ الشُّعُوبِ فِي مَرَصُوعَاتِهِ الْكَثِيرَةِ وَجَعَلْتُ لَهَا عِلْمًا خَاصًّا أَوْ بَابًا خَاصًّا  
مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ يُسَمَّى مَعْرِفَةُ الْأَحْنَسِ الْبَشَرِيَّةِ  
وَأَنْهَيْتُ بِهِ لِحْثًا إِلَى وَجُودِ الْقَوَارِقِ الصَّحِيحَةِ بَيْنَ حِمَاةٍ مِنْ

الأحاسس التي يسمي إياها شعوب بشر كافة . وهي الحس المتفاسي أو  
الاصغر وحس رحي و الأسود . والحس المعزلي أو الأصغر .  
والحس الأسمر أو أهل الملايا وحس الأحمر أو سكان القارة  
الأمريكية الأصلاء .

وحتصر بعضهم هذه التقسيم في ثلاثة أقسام فجعل الأحاس  
الصفر والسمراء وخمراء فروعاً من أصل واحد . وهو اختصار له سند  
معقول

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالمعروف التي تورث وتنتقل مع  
الأحياء . أي بالمعروف التي يسمونها فرقاً بيولوجية دون غيرها من المروق  
للاجتماعية التي تكسب بالقبولة والاعتماد

وساوى لعالم المعرف لأمان ماكس مولر دراسة الأحاس من الناحية  
التي تعنيه وهي ناحية المفاضلة بين اللغات . فاستخدم كلمة البعث الآرية  
وأحيائها من جديد بعد أن سقاه إلى استخدامهما السير وليام جويس في  
آخر لقرن الثامن عشر . وقرر أن لغات الهندية الهندية الهندية نشأت  
من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « ريان »  
ونها كانت في نشأتها لأول لغة هيمن واحد من الأحاس البشرية . وكلا  
بقويين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما تنه حوياً هكسلي من  
كلامه عن الحس في القارة الأوروبية .

وأحسن العالم الألماني الكبير أ. دعوة الحس لآرى متخرج من حير  
تفكير المعنى في ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من  
الخطأ في تفسير كلامه وعدد إلى التحذير من ذلك في شبحه حيث  
قال : لقد ردت مرة بعد مرة أنني قد ذكرت الآرية فست أعني

الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الخسحمه . وإني أدعى إلى فصد واحد وخذ  
 أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية . ومنى تكلمت عنهم فليس  
 أنسح في ذلك اختصاص الشرخية ، ولا أعني أن أساء اسكندناف  
 دوى العيوب الررق والشعر الأصغر قد كانوا هاهرين أو كانوا معهورين .  
 ولا أنهم قد اتخذوا لغة اساده لسعر الذين تعلو عليهم أو كان لأمر على  
 مقيص ذلك . وعدى أن عام الأخناس بدى يتكلم عن العصر لآرى  
 والدم لآرى والعيوب الآرية والشعر الآرى إما هو في حطيته العلمية  
 كاللغوى الذى يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أخرومية مستديره على  
 حد سواء .

وكان لقرن التاسع عشر قرن « مذهب لشوء » كما كان قرن مذهب  
 لعلمية والمسيحية من شئى نوحيا . فمالت الأحوال فى مذهب لشوء  
 تنسج وتنسج حتى عرص بعض الباحثين فيه أن الأحناس البشرية  
 تنسج إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة . وأن القردة  
 العليا هى أجناس بشرية بمعنى . وأن المعول والقرد المعروف بالأورنج سنا  
 من أصل واحد . وأن الرخى ولعوريلا والشمانزى تنسج إلى أصل  
 آخر . وكان رأس القائلين بهذا رأى عالماً ألمانياً من علماء الأحناس هو  
 الدكتور هرمان كلاتش Klarach . أستاذ فى العلم بجامعة برسلو  
 الألمانية فأعلن فى أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من  
 اشواهد وملاحظات التى كشفت عنها مقالاته بين أنواع القردة وأنواع  
 الإنسان .

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن الشوء  
 والتصور دون غيرها بل كان كذلك قرن لتوسع فى الاستعمار وتسخير

العلم لخدمة النظام الاستعمارية والمنازعات السياسية فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة البونية أو العصبة الخمسة على أساس الدول ولعنصر ، وقام في أوروبا من يبشر بامتياز أحاس شمال على سائر لأجناس البشرية ومن يرد لفضل في كل فتح من هرج العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الحسن لآرى المزعوم في الشمال ، وأشهر من يشتر هذه الدعوة « اذرتى جويسو » في فرنسا وهوستون شميرلين الإقليم متحر من في ألمانيا . ولم تحمل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهي ميدان براغ بين الأحاس البيضاء والحمراء وال سوداء وميدان مفارقة بين المهاجرين الأوربيين الذين غنوا بالنسب إلى أصول مختلفة كالسكسون واللاتين وألم الشمال والجنوب . فكان لوثرود ستودارد Lotthrop

Stoddard وماديسون حرانت Madison Grant على رأس المشربين هذه العقيدة في لولايات المتحدة . ولم يكن كراهة الأحاس المدونة هي الداعى الوحيد في نفوس هؤلاء إلى التشهير بمرايا الرحمن الأبيض أو مرايا الحسن الآرى خاصة من بين الشعوب البيضاء . وفي كانت كراههم للحكومة حرة . أو حكومة المساواة بين الطبقات داعيًا آخر إلى إبعاد صعاء الشعوب التي سمحت هذه الحكومة الحرة ونهالها بالكملة والفساد من حرة امراحها بأحاس غير الحسن الآرى أو الحسن الشمالى المحمد . فكانت هذه الكلمة مدرجة لها إلى التزول عن أوج السيادة والإدعاء لشريعة مساواة

ولاشئ أن حروب مليون بوابرت كانت لها يدقوية في تمكين هذه التزعة بين الأمم الجرمانية خاصة . لأنها كانت سلاحها الذي تدر العار به عن معارها القومي في محار الصراع بينها وبين اللاتين أو بين ألم الشمال



وأنهم الحبوب . وقد كان دبلوماسي قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع  
الحرمان محدثاً من حبوب الحبوب بالقدس إلى القارة الأوربية .  
فكانت صبيحة لفتح القومى التى تستثار بها الأمم حرمانية إلى الرعدة  
هى نعظيم مرنا الحس الشمالى الذى ينسبون إليه . واتفق ذلك في عصر  
البحث عن الأحاس وعصر انشاء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار  
وعصر الديمقراطية التى تحلف فيها الحرمان عن حيراهم . فكانت صبيحة  
لتفوق العنصرى على شذها بين الألمان . وكادت عقيدة الحس الأرى  
أن تنحصر فيهم بعد مولدها في بلاد الإنجليز على لسان واحد منهم وهو  
العلامة ماكس مولر اندى سقت للإشارة إليه . ومن ثم بدت دعوة إلى  
لتفوق العنصرى لم يكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو  
بعيد

• • •

وقد تعددت الأسباب التى أفضت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية  
الاصية ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام  
اشمالية ومما من المرححات على حقائق الله كافة من أوربيين وغير  
أوربيين . سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث  
فقد احتاج الساسة الألمان إلى محاربة المذهب الشيوعى فوضعوا يازته  
مذهب الاشتراكية « الرطبية » وهى تعتصم بالخصائص لقومية في وجه  
الدعوة للدولة التى ينشأ الشيوعيون ، وهما لعقيدتهم المعروفة ، وهى  
عقيدة الثورة على الأوطان والأديان  
ووقعهم خصائص القومية في حزمهم بالشيوعيين من وجه آخر غير  
المقابلة بين المذهبين . وذلك هو المقابلة بين عصر للافين وعصر

لتيوتون الذي ينتهي إليه الأسان فكانوا يقولون إنهم هم حماة الحصرة  
لأوربية من رحوف البربرة التي تهددها من قبل آسيا في أرض الحديث  
واستعلوا دعوة العنصر الآري استعلاءً غير هذا وذلك في محاربة اليهود  
باسم الساميين.

واستعلوها مع هذا ودك لاستهاص نخوة الأثم الحرمية بعد هزيمها  
المكررة في ميادين القتال ، فمحقوا في أوداحها أنها أهل للطمر وليست  
بأهل للهرجة - لأنها خلقت للسيادة وتترعت في سلالتها الآرية عن  
شوثب لأحناس ، وأدخلوا في روعها أنها كانت وشيكة أن تظهر  
بأعدائهم بولا خيانة الممل من قبل الشيوعية ، وحياة اليهود من قبل  
الشيوعية نارة ومن قبل أصحاب الأموال نارة أخرى

فأصبحت دعوة العصر هوساً جامعاً كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من الهوس بالدم الآري المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الأخلاق والفنون والآداب . فكانوا يقولون إن الحكومة نية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الحواش في الأحسام ، وأن الرعيم تركيب داخل في تلك النية تقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هنتر ينادي في كتابه : « ما معشر الآريين لا يعرف الحكومة إلا كنبية ذات حياة يتلصص بها الشعب من الشعوب » . فهي شيء لا يدخل في الإرادة ولا في لتربة السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه المصرية حتى يلقوا بها مع تلك البواعث  
الفسية والسياسية مسعاً لم يسبقهم إليه سابق في عالم البحث ولا في  
عالم خيال فجعلوا أحساس أسير فصائل تتعاقب صبيحة تحت طمقة حتى

نلتقى بانقرده ولا يبعد أن تسلمه . وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة من فصائل لآرية جمعاء ترتقى إلى الذروة العليا في ذلك انسيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب القرائح ، الخلاقة بين عظماء الأمم فأحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل احراج من ميكرات لصاعة وأدوات الحضارة فسيوه إلى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الأوطان . فحصبوا الحق والسيادة في لآرية لمعهمة دون غيرها وجعلوا العناصر الأخرى جميعاً عمالة على الآريين يستمعون بما يحفون ويديون لسيادتهم طائعين أو كارهين

ولعل هذا العلو من جانب دعاة العصرية قد حجب ببقاد هذا المذهب إلى العلو في إنكار خصائص الأفيام ولأحدس ، وهم إذ علوا في هذا لطرف كان لهم شعيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الإقناع من شعيع العصريين .

ولما تعرض لبواعث السياسة التي اترجت بالحقائق العلمية في مدانة الحسن والعصر لأن الإلزام بهذه البواعث يعين على تعريده الحقائق العلمية من أحلاطها الغربية ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث العقول .

ومن الواجب أن يصحى أولاً إلى دواعي التشكك في تلك الدعوة المخدومة وهي كثيرة . فمنها عن التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة العصريين وسطن اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي حيل إليهم أنهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان

فمن دواعي الشك في لعصرية لآرية أن العصر لآري المعروف لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات النورثية على النحو الذي

نحبلوه ، وإنما كان جامعة لغوية بشرك فيها أقوام مختلفون لا يتقن ردهم  
اليوم إلى نسخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العصرية إلا كما يشابه  
لأقوام الذين يتكلمون اليوم بلسان واحد على تباين المواطن والألوان  
قال العالم الإنجليزي جويان هكسلي في كلامه عن العصر أو الحس  
بالقارة الأوروبية : إن دعوة العصرية يتكلمون عن الحرمان والآريس  
وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ  
به من الحقائق وإنما لمقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالنموذج  
لشمال موزعاً بين لأقطار الشمالية في أوروبا من البحر البريطانية إلى التحوم  
الروسية . وبهذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة  
رائصاء في بعض الأقاليم السكندنافية لم يسب إليه قط فتح من فتوح  
الحضارة أو كشف من كشوف العلم أو أدلة من أدوات الاختراع التي  
شتهرت في التاريخ . وقد روجعت مخدات العصر الحجري التي ترد إلى  
ما قبل امبلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فإنها هي تمثل ثقافة  
من ثقافات لبحر الأبيض المتوسط حملها ديوها إلى شبه الجزيرة  
لايبيرية التي يعرفها باسم الأندلس - ثم إلى فرنسا فالبحر البريطانية  
ومن محقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الإنسان إلى الحضارة حين  
تعلم الحث والكتابة وساء الممارس ونقل الأحجار على اللوح قد تقدم  
بها في حوز اسحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمرية التي لم تسب إلى  
السلالة النوردية . ومن محقق كذلك أن مشاهير الحرمان أمثال حيتي  
وبتوهر وكانت كانوا مستديرى الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون  
ولا شكسبير ولا نيشين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على لصفة التي  
يرغمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام

الطويل الرشيق لا يعرفان نزعهم من دعاء الدعوة النوردية أو لارية  
لرعوته فتهتلر أسمر وخوريج مهيئ بادد وخويزر قصير دميم ورعاء  
« الحكر » من سكان ألمانيا الشرقية تحتل فيهم ملامح السلايين  
والبنوتوب . وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الخردية على الأمم قاطبة

ويتفق عماء الأحاس ووصف الإنسان على تورع السلالاب في  
العصر الواحد كما يتفقون على ندرة انقاود الخفض في عصر أو سلالاة  
فالحنس لأبيض في القارة الأوربية وما حاورها بصوى إلى عوان واحد  
ولكنه يقسم إلى السلالاب لنوردية ولأنييه وسلالاة البحر الأبيض  
متوسط . وهذه السلالاة لأخيرة نصوى إلى عوان واحد ولكنها تنقسم  
إلى ييين وإييرين ويحورين نسبة إلى سم جمال لأل ماين الحر  
وسافونا سفى . وقد يضاف إليهم البيلاسجيوب Belagian الذين يعرفون  
وحدهم في بحر « يجه » على مقربة من اليونان .

وحس لأسود . على كونه من العناصر متميزة بين أحاس البشر .  
يختلف في بعض الصفات وإن تماثل في اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت  
القائل السوداء في أستراليا ولكنها تحالف لقائل الأفريقية في الخصائص  
الوراثية ، من يقع خلاف في بعض الملامح والأحلاق بين السود  
المتحاورين من أبناء القارة الأفريقية أو أبناء لإقليم الواحد منها  
« البرشمان » والموتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الأولين قصاص وثانوي  
مولعون بالصيد والقنص ولآخرين حوال يرعون ماشية ويميلون إلى  
الاستقرار ويحاورهم سود من أبنائهم فياثن البنو الذين يعرفون السودان  
الحوى وبعض أقاليم الصحراء في الشواطئ العربية . وهم جماعات

شئى بين رعاة رحى مفاطين وراعى مضمعى مودعين . ويست هو ارفهم فى  
العباب تأفل من فودفهم بكثيرة فى علامع واحسات والعبادات

• • •

وبعض هذه الشواهد استوتره يقرر له أن السلالات البشرية لا تنفى  
على وحدتها وانفردتها مع تعاقب الأحياء وحتلاف مصارع الهجرة  
ولا تنفاد . ولكها تتورع وتنصرح ويشر التوريع وتنصرح فى حصائصه  
ومراياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك فى مراعم العصريين  
الذين يقتصرون مرايا لشر اعليا جميعا فى سلاة واحدة تفرد بها وحدتها  
بين سائر السلالات .

ومن سواعى الشك القوة فى مرعم العصريين أن كثيرا من المرايا التى  
يصفون بها سلاة من السلالات يسهل لرجوعها إلى عواملها المحلية أو  
لاحتماعية التى لا تحسب من العوامل الورثية الحثوية . وعلى ما  
يعرف بالعوامل البيولوجية

فقد رعموا مثلا لسلالات لأوربية أنها انفردت بح المعرفة  
المطربة ومكة البحث عن حقائق لأشياء وه النصف المخرى الذى لا  
يرمى إلى منفعة القرمة سواء منها ما ينفع به لأفراد أو ما تنفع به  
الجماعات . وقالوا أن الشعوب الشرقية لا تحب لمعرفة هذا حب ولا  
تنحرد للمباحث المصنعة هذا انحرد . ولكها نعى بالعلم لتطبيقه فى  
الصناعات ومراعى العيش ومصالح الحياة العملية . ودليلهم على ما  
يرعمون ذلك الفارق الطاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار العشب وقوى بين بوحود تدخل فى  
سطان الكهانات بقوة وأن هذه نكهانات القوى نرصح وتتوسع وتسقط

بديها على العقول إلى حجاب الدون العظيمة التي لابد من قيامها في أودية  
لأشهر الكسيرة . فحينئذ واحد سهر كبير في صفح من الأصقاع . يكن  
هناك يد من قيام دولة عظيمة على شعبه تنوس الرخ والزرع وتصوب  
لأمن وتصحب سلامة لمعاملات ، ومتى قامت هذه سولة العظيمة م  
يكن هاند من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة وانتقد بحق  
البحث في العقائد واستطرد على عالم الروح والتصميم . وكثيراً ما تجمع  
لوطيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك لأرباب أو أنصاف  
لأرباب . في التدرج القديم . إذا نصحت أبحاث الغيبة والمعارف  
لنى نتناول أصول الوجود كما للكهانة تحببه اندوله فليس من المعقول أن  
تسح الحرية للناس يشنون فيها وبسكرون كما تسع لهم في عيبة الكهانة  
القوية والدولة العريقة . ولا ماصر من اختلاف مقاصد التفكير حيل  
بعد حين بين الأمتين حتى يروح بالنظر العاجل في نهاية نه اختلاف بين  
طبعتين أو معدنين من معدن الخليفة الإنسانية

وقد كانت أم الشرق القديم دولاً ه كهانات قائمة قبل أن تظهر  
الفلسفة اليونانية بأدب السنين . . فامتد تفكير اليونان إلى محارب فلسفه  
الى كانت حرماً مبيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس .  
وطهر الفارق من أحل دلت بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين . ولو  
بعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودحة والفراب لا يعكس  
الآية بلا مرأه

وبما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة لقوية صعب في أوروبا حين  
بوطدت فيها مثل ما صغته الكهانات في الشرق القديم . فلما امتد سلطان  
كنيسة البابوية على الأمم لأوربية صرب الحجر على العقول فأحجم

الناس دهرأ طويلا عن البحث المحرد والتفكير في حقائق الوجود ،  
وبلغت الكهانة الأوربية على حداتها ما بلغت كهنات الشرق بعد  
تحقيقات وأحقاق تتوالى من بداية عهد التاريخ

كذلك رغم بعض النقاد العسكريين من أهل أوروبا أن الأوربيين  
يبتازون على الآسيويين والأفريقيين في معدن لشجاعة ولبطونة الحربية .  
واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في  
معركة ماراثون ومعركة سلاميس

فالواقع الذي أثمرت عنه دراسات الثقافات من النقاد العسكريين  
المحدثين أن الصحار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين فالح فيها  
جد المبالغة وأصنى عيبها ثوبا من الحماسة خيالية خرج بها من حيز التاريخ  
الصحيح إن حيز الملاحم الهومرية

فلم يدركي خلده « دارا » يوما من الأيام أن يستولي على أرض اليونان  
لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزرعة ولا للتجارة ولا يجشى منها الخطر  
العسكري على دولته المترامية لأطراف . وإنما عناه أن يؤدب أوتريا وثينا  
لأنهما تحمرا على معونة اليونان النافرين عليه في آسيا الصغرى . وعثم  
بذلك فرصة الشقاوين المستبدين وأبصار الحربة في أثينا أو قيل إنه تنق  
من رعاء الشعب المتمرد وعدا بالانضواء إليه وحدلان أولئك المستبدين  
فأحمد الثورة في آسيا الصغرى ثم رحف على « أوتريا » فعصف بها وأرسل  
أهلها أسارى وسببا إلى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء  
ثم تقدم إلى أثينا وفي حاسبه أنها مقسمة على نصفها بسرعة إليه  
فانتسيم وومن بعض طوائفها ورعائها ، فلما وقع ما لم يكن في حساب  
الفرس ولا اليونان وانفقت كلمة الأثينيين على المفاع عن بلادهم م



يشأن يصل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاوعة والعناء.

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير. شغل الفرس بعد معركة ماراثون بالثورة المصرية لم خرج رركسيس لقتال اليونان في جيش صحم مختلط لأحاسس لكنه دون الصحامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت صحامته وحتلاظه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأحاسس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بعمرة الأسطول الذي يلازم الشاطئ ويحمل له المؤنة واعتاد ويتكفل بقله في انخارات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معاً مقيدين بطريقتين واحد لا يعدوانه ولا يعيب علمه عن اليونان ، ولذا التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن العارمية عائقاً للأسطول أيضاً ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن المكان ضيق من أن تستع يدورات الأسطول كله ، ولأن رركسيس لم يتقدم إليه إلا لعدمه باختلاف قواد اليونان في إدارة اسحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع معظم السفن من سلاميس.

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في جانب اليونان ، وأصبح عمود الجيش العارمي ضرباً من الحذل بعد صياح السفن التي مني تخسارنها في المعركة ، فعذب رركسيس عن لمطاولة في المعركة البحرية وإن كان قد طهر بالأنسيين في اموافق ليرة

ولا شئت أن الذي اصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب

يونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا يقتلون الجيش مثل أنفسهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناف السلالة ، ولكنها اختلاف في الأحوال والملاهيات ، وتخييق بالدين يسون آفة الاختلاط في الحيوش وتحسون معبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن لصلبيين على ومة حموعهم وانتائهم جميعاً إلى العصر الأوربي قد أصابهم لمريمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تنقل عنهم في لعدد واعتاد ، ولم تعود لصلبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاه البدعة لآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أهم الشهاب من يونان الجنوب ؟

إن العام المحسوى فردريك هرنر يذكر أن اختلاط البرنوح بأهل أوربا في الزمن القديم ، ومن قصد في هذا الصدد أن تنقل هنا ما أوردها في كلامها على مفاخر الأحاس بالجزء الثاني من « ساعات بين لكشب » . . . وهذا بعض ما جاء فيه .

« البرنوح أثري أوربا تدل عليه الخاخم التي وجدت في ألمانيا وسجيكاً وفرنسا وكرواتيا ومورسيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمانى سنوات في فريقيا الحويية . وقد بنى أثر للأقزام السود في حبال الألب إلى عهد بليني بنى تكلم عن هؤلاء لأقزم وعزرت كلامه القصص والأساطير ويرغم شميرلين أن عرفان حقوق الحبيبة هو مربة الآريين التي لا يعرفها لساميون في الشرق لاسعرفهم في الماده وتقدبهم بلال واخطام على الأدهان ولأرواح فيحيه الأستاذ هرنر شوسه معجم هو لمقابلة

السيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابى فى محاسبة المذنبين فالروح الثالث من ألواح العقابون الرومان يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المذنبين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلاً فى مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القص عليه وتكيله فى الحديد والحبال . وأما شريعة حمورابى فهي تفصّل بأن يخدم المدين دئته ثلاث سنوات . والقانون بحميه فى خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . رد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين فى أمور أخرى منها أن السارق المصطر معذورى شريعة حمورابى . وهو غير معذور بحسب من الأحكام فى شريعة الرومان ، وأن الأب الرمانى يجوز له أن يبيع أولاده . ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الروح البابلى لا يجوز له أن يقتل السرارى معبر إذن من روحته وليس بلروحته مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الخط من ديه . إذا نقصت عنه أهله وليس فى الشريعة الرومانية شيء من هذا القيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الخطم فى شريعة حمورابى ثم من شواهد انقياسه وتقديم الخطام على الحياة فى شريعة الرومان .

ويرفع شميريين اليونان إلى أسماء ويقول إن علومهم وقسمهم وقوتهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التى يمتازون بها على الآسيويين واسامييين يقول له هرتز إن أسطوري رمانه كان يطرئ مواهب الآسيويين فى الفنون ويحكم على أنهم الشمال ناعفم لدى لا علاج له فى المعارف بعينه والسياسية لعبة الخرافات لا تبدلين لها على تعاف لأرمان . ويقول هرتز أيضاً إن توبسيدد المؤرخ اليونانى . ذكر أن ابويان كلها كانت فى قصة البرابرة . وذكر هيرودوت أنه كان يسمع فى رمانه لعبة البرابرة فى بعض

أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين كرشمر وكيسلج وفث أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء مواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب مما يقول هيرودوت . والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل آسيوى سمي وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الأقوال على أن ريبون رأس الفلسفة الرواقية آسيوى الأصل والنشأة . بل يقول فيث . إن هومر نفسه سم سامي آسيوى مخرف من « زومرا » بمعنى المقتنى أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخريين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس لأنه يرى أن الفواصل بين أي شعبي في لعالم ليست من النعد والحيلة بحيث تستعصى على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة لأبام هيسبال الرنجى الذى فتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف ، وكان حصيدهما بوشكين أكبر شعراء انروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا . وسيلان وهو رنجى آخر كان في البلاط النمساوى في القرن الثامن عشر ربي سيدة شريفة وفترت بنته بسيدة من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان رخمار فبعت بأديها وراححة لها مكانة تغط عليها في البلاط الألماني وأصبحت صدقة حمسة للإمبراطورة فردريث وكثت لها ترحمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وهذا كان اندم الرنجى يجرى في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر من الحمض الأحمر والحمض الأزرق أو بين الحمض الأبيض والحمض الأصفر إنما في بني الإنسان فالفرق اليسير بالغاً ما بلغ من التماهة كما أن ينشئ من الأوهام الجسدية والعصبية الشعبية أسخطها وأبأها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرينا المجهز أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الإنسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتورع في مادة صبيغة واحدة متماثلة في الجميع »

كلام إذا رجعنا به إلى الأسانيد والبيات فهو أقوى سداً وأثبت بينة من كلام المعرقين في تمحييد الأوربيين وتفصيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى المعنى فهو أقرب إلى هواننا وأولى بإصعائنا من كلام أولئك المعرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تريد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله بحجة واحدة ويفردونها بفصل المراتب وأشرف الأخلاق بين السلالات الإنسانية .

ونكننا نتحاور الحد المأمون إذا تجاوزنا هذه الحقيقة إلى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر المصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه المصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ولا تورث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه فروق موجودة يرداد ظهورها في بعض الأفراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأق لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا إذا تجاوزنا العيان وأغصينا عن المحسوس المائل لجميع لأدهان

وفد يوجد من العنصريين المختلفين شخصان يتشابهان وتضعب التفرقة

بيها على الباحث المحقق فصلا عن لطرق عرض الطريق ولكن التشابه حيناً لا يمنع لاختلاف في جميع الأحيان ، ولو ذهنا نطل بحالهما بين الأنوع كلها وجدت امشاهة بيها لأمكن إبتكار الفارق بين الإنسان وحيوان على هذا القياس . فإذا قيل إن الحيوان يمشي على أربع يمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان يمشي على أربع . وإذا قيل إن حيوان أعرج يمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان أعرج ومن بعض الطريق يطق كما ينطق الإنسان وإذا قيل إن الحيوان مستلوب العقل والتفكير يمكن أن يشار إلى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون . وإذا قيل إن الإنسان والحيوان لا يتناسلان يمكن أن يقال إن الكلب حيوان والهر وها لا يتناسلان

لوجود المشابهة في بعض الأفراد لا يفي بمخالفة في عامة الأفراد . وقد شدد تعريف الفارق الحاسم بلمة العلم بقرار ولكنه مع ذلك يبقى طارفاً حاصفاً إلى أن يوجد التعريف .

وخذ المأمون الذي لا يريد أن يتجاوز في هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بأفصل المراتب وأشرف الأخلاق هي دعوى يعجزها الدليل القطع من وقائع لتاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العباد . أما لاختلاف بين خصائص الأحاسيس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الأفراد .

من المشاهدات ومن السمات معاً أن العزة في النسب وفي لتعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في لصفات الحمادية والخلائق النفسية على السواء

ومن المشاهدات ومن السمات معاً أن الشعب المد يفضي

عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الحوية والاحتيايل على مواع  
الطبيعة والتأهب للمخاضات من جيرانه ومن طوارق الأرض وده  
والسواء ، لا يشبه شعباً قصي مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل  
على المصادفات وهو معنى من الخيلة واجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن لتوارث في الخلق والخلق موط  
دلباسلات genes التي توحد في حلاما الذكور والإناث ، وأن  
هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد  
الأسرة الواحدة . ولكما لا يعرف ليوم على وجه التحقيق كم من الرمن  
يكفي لتحويل العورض التي تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات  
تستقر في تكوين الناسلات وتنقل من الآباء إلى لأبناء ، ولا يعرف على  
وجه التحقيق هل ما يوحد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار  
الطويل في عوارض البيئة وللمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول  
الاختلاف في التكوين

والذي يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة . ويعتقد أن العلم وشيك أن  
يثله في تجربة من التجارب المقررة أن دراسة الوجه الإنساني تدب على  
كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة ارتق لا رتناط بالأعصاب ثم بالعظام  
فأنت لا تخطئ تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى واحة أبنائها ، ولا  
يهونك أن تعلم أن هذا الوجه السهل الذي نعلب فيه ملامح اللحم والدم  
على ملامح لأعصاب وعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلا  
من الكفاح وهيبلا من التحارب وهيبلا من حواهر النوص . وإن ذلك  
لاحه الحارم الذي يلفتك إلى متبة لأعصاب وعظام قبل أن يلفتك إلى  
بصاصة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على لاعتزام والجلد ولم

يسلموا بسهولة العيش مد رمس بعيد ، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف نورت هذه الملامح الحارمة في لوحه ، فإن اللحم لا يتقلها والدم قد يحرق الناسلات ولكنه لا يحرق القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأعجب العظن إذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم فيما تقدره - ن تهتدي إليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانشاء والتنبيه .

ومها يقل العلم غداً في هذه المسألة فالذي يحرم به مد الساعة أن وحوه لأهم التي قصت ألوف السنين في الخلد ولاعتزام تخالف وحوه الأهم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وإن الاستدلال بعلامح الوجوه طبيعة في جميع لأحياء ، لأن الحيوان ينتظر أوان ما يطر إلى وجه الحيوان الذي يقابله ليحرم هل يسده أو ينسحره ويتحداه ، وإن كانت الوجوه لا تبدى كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفى كل ما في النفوس والعقول .

وحسنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأحاس نورت إلى مد رمس بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وإن بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الأفراد بعد روال أسسها إلى حقبة طويلة ، وإن الأساء ينقبوها عن آباء بالقدوة والتقليد وإن لم يقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات

وبين ما هنا ان يبسط القول في خصائص لأحاس جميعها ، لأن



الحسُّ الأسرد هو الذى يعتنا بها فى هذا الكتاب ، وهو من الأحاس  
التي يسهل تميرها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة .  
والاختلاف فى وصفه أقل من الاختلاف فى وصف غيره من الأحاس  
الشريفة الخمسة أو الثلاثة على قون بعض المتأخرين .

وحر نفل هنا شدرات من أوصافه فى كتب علم الأحاس وعلم  
الإنسان ونصح بعض بعضها ببعض وتضيف إليه ما تعلمه من خصائص هذا  
الجنس بالمعاشرة والاختبار

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب "حس العهد  
القديم ،

«إن الزمخى مستطيل الوجه شديد ترور الفكى مع صمور فى الدق ،  
أنه أفضى واسع المخرب ، وشفتاه عبطتان . وأسنايه كبيرة جيدة ،  
وصرس العقل منها يظهر سريعاً وبذهب أحيراً ، وهو بسيط الجمجمة  
طويل الذراعين ، وريالات ساقه معية . وقصة رجليه منسطة مع  
انقبض فى لإبها ، ومادة الصبغة السوداء فى الرخى كما أسلمها سرى  
إلى عضلاته وقد تسرى إلى دماغه وهو بالقياس إلى الأدمعة الأخرى  
بسيطة التلافيف . وميله إلى القيون قليل ما عدا موسيقى فهو مقوم بها شد  
عرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أساء الزنوح  
فما يتقدمون بعد الرابعة عشرة . ويعب عليه الكس والإيمان بالحرفة  
ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصتان ترعبان من قديم الزمن فى  
اقتنائه واستخدامه . لى عصور الفراعة فى الأسرة الأولى كانوا يعيشون  
حملات إلى بلاد كوش لاستحلاب العيد منها ، وكان عدد الروح  
لجندرين كبيراً على الأعص فى جميع الأزمان . ولعل عند ملك الذى

أنقذ حياة السبي أرميا كما جاء في الأصحاح الثاني والثلاثين كان من الروح وكذلك الكوشى حد اليهودى الذى جاء ذكره في الأصحاح السادس والثلاثين إذ يقول . ( فأرسل كل الرؤساء إلى باروخ يهودى ابن شيا بن شلميا بن كوشى فائلى . المدرج الذى قرأت فيه في آذان الشعب هذه بيدك ونعال ) .

وومع قدم الانتصاب بخصاصة لمصرية تلك القرون الطوب لم يتعلم الرجبى منها على الأرحح غير صهر الحديد . فحاء عصر الحديد معقب لعصر الحجر توى في تاريخ بعض القائل بغير توسط من عصر النشبه أو النحاس .

والرجبى مقلد شديد الميل إلى التقيد . وهذا يفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصرى المثقف . بل خلافاً لأناء فائلى البوشمان المقيمين بأقصى جنوب في القارة لإيريقية ، فإن رسوم الحيوان على عدران التى تحتوى بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يحجل الممان الأورنى إذا سب إليه . وهى على الحملة تفصى با إلى سؤال عن قدم الجسم الرجبى في التاريخ

« هي جنوب مصر تشاهد الصحور الرملية التى تعصها رسوم الحوان والإنسان ومنها الحديث الذى لا شك في حداثةه والتقديم الذى لا شك كذلك في قدمه . ويرى على انصحر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تعبير قليل من أثر العوارص الحوية حتى ليحيل إلى الناظر إليها أنها من عمل أمس القريب . واما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارص الحوية أنها قد مضى عليها ردىح طويل من الزمان . ويرى - عدا هذا

بين الرسوم رسم الرعاة كثير التكرار . فإذا لاحظنا أن ذلك الإقليم كان أرضاً قاحلة من بداية لتاريخ المصري دل حضور الرعاة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحاً مروية بماء تعطىها أشجار الخسك التي يرعاها الزراف . ويتشر رسم النعام في تلك الرسوم كما يتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعام من لمقطع الميروغليفية التي تمثل فيها لطيف المصيرية على وفرة ملحوظة . وحقيق هذا أن يدلنا على أن النعام لم تكن معروفة عند مخترعي الكتابة المصرية الأولى . وأن سير هلابدوس يرى على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل . وتزيد رأيه كشوف الساميين في جهات أخرى من أفريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش . وقد أستطيع الانتهاء إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها . فإن الدكتور بوبه Bunnet وجد في وهران الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها تلك الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع البولوني الذي يصنع فيه تلك الآلات . ومن ثم يذهب أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية . وهو عهد في مصر حدد بعيد « من الخمس إلى على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى مخصصة وكانت ذات مصر ذراعاً من البحر الملح كان جبل من الناس قريب إلى جبل الوشمان يترك في أفريقية الشمالية بين السواحل الاطلسية وشواطئ نهر النيل . ولعل قبائل الأكاسين وغيرها من قبائل الأقزام مستديرة الرؤوس في أواسط أفريقية بقية ذلك الجبل

القديم ، وقد أحلتهم عن مواطنهم غارات الزنج وم تزل بهم غارات قبائل  
البانو أو الكاهرين حتى أحلتهم إلى جنوب القارة لأفريقية ، وقد كانوا  
جسدياً دون أعدائهم في القوة وإن لم يكونوا دوسهم في المراتب الأدبية ،  
وكانوا على كل دوى ملكة فية تعور الريح والكافرين على السوء وهى  
ملكة الرسم إذ لم يكن فى وسع الزنجى أن يرسم أو يتمم رسوم  
الصخور فى بلاد اليوشان ولا رسوم الصخور فى أفريقيا الشمالية  
« وقد كانت الجبال التى تحدها الصحراء من الشمال مكن قبائل من  
اللوبيين منذ عهد سحيق فى القدم ، وقد وضعنا هذا الجبل ثلاً وبيننا أنه  
ينتمى إلى سلالة مميرة بين سلالاب الحس الأبيض . وربما شهدنا  
اليوم فى قرى بحيرة وأيرلسة هروعا من تلك القبائل على حسب الملامح  
الظاهرة ، والتموج العتيق الذى تبديه لنا تلك القبائل تؤكد لنا لأثار  
مصرية كما نجلوه بلامح ابيضاء التى بقيت له إلى الآن . »

• • •

وكلام الدكتور سايس هـ فى أوصاف الحس الزنجى وتاريخه العريق  
قبيل الخطأ كثير الصوب ، أو هو من أصبح ما كتب فى هذا الموضوع .  
ويرد عليه من كالأحاس الحديثة أو كتب عم الإنسان أوصاف  
أخرى بعد بعضها من قبيل لتصحيح وبعضها من قبيل التكنة ، نأتى  
عليها بإيجاز .

هائون لأسود فى الأحاس اسوداء لا يتعمق إلى ما وراء ابشره  
الظاهرة ثم تساوى ألون جسم الإنسانى فى جميع الأحاس . وإنما يأتى  
سواد من صبغة فى العشاء لدى بلى البشره الظاهرة ، ولا يسرى على  
ما وراءه إلا حرصاً فى قبل من الأفراد

وقد يفهم دلالة الصبي واسعة في تركيب الجمجمة ، ١٠ فهم أن  
جمجمة خمس لأبيض بين الأوربيين ليست أوسع الجمجمة الإنسانية  
ولاً أوسع من حياض غيرها من لائم نتي لا تخاربه في حصارده . وقد  
حسب قطر الدماغ من الأمام إلى الخلف مائة منسبة العرض إليه في الرئحي  
سعود وفي لأوربي ثمانون وفي الساموي من ثناء حرر المعروفة عرف  
المحيط الهادي خمسة وثلاثون .

والرئحي طويل السر عن تصل دراعه إلى مركبه في بعض الأحيان .  
وشعره الصوفي معروف هو أوضح العلامات المبرزة بين جميع  
الأحسان .

أما مزاياه الثقافية فحسب أن تتذكر حين نقابل من تحمله ويقدم  
الأحاسس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه . وأن العبرة  
بمجهود العقل الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالنسبة الثقافية التي  
حسب بذلك الأمر في سلم الثقافة العامة فالتعدادات الرياضية العليا  
ترقى في سلم المعرفة من الجمع وال طرح في الحساب . ولكن المعادلة  
الرياضية العليا لا تتطلب من دهر مهندس لتعلم جهداً أكبر من جهد  
الرجل الرئحي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين .  
ولا سيما إذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين .  
أي عشرين .

وقد عرف أن الرئحي في قائل « النور » التي تقيم عند « سبرليون » قد  
اخترع نوعاً من الكتابة يوناني حاجاته ولا يرجع إلى أساس الكناية  
الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة

أما حصه من الفنون فليس بالحظ القليل إذ نظروا إلى حاجاته

الطبيعة ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل « هاملوك إيبس »  
حين قال : « إنه قد سلك مسيه إلى الحصار إقصاء » قد لحص ملكانه  
المية أحمل نلحيص

والرقص لا يكون غير نعات ، والمرح المطوع في الرنحي هو مبعث  
رحيه الذي أهله الرقص والعاء ، فهو عظيم لولع ، لأعنى سريع الأدب  
لي التقطها حين يسمعه مرة أو مرت فينة ، ويعنى أن يفرق بعض  
التفرقة بين منكة الموسقى ومنكة العاء ، والإيقاع لأن الأصوب  
لموسميه تبع من الشراكب والسوء مبلغ يعدده من لإيقاع الذي  
يصاحب حركات الأحكام في الرقص الفطرى أو الرقص الحديث  
والرنحي يحب الغناء الراقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من  
بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذي علمنا في  
سيره النبي عليه السلام أنه دعا السيدة عائشة رضى الله عنها إلى التفرح  
به واسطر إليه ، وكان يعرف بالرقيق لسرعته وتولى الحركة فيه .

ولما اشتغل الرنحي بالفنون الأخرى كصح الثنائيل كان الإيقاع رائده  
الأول في هذه الصناعة حتى قد يظهر بلوهلة لأولى أنها بعيدة عن العاء .  
لأن السب التوقيعية كانت تعب في الثنائيل لرحمة على مشاهدات  
الحياة ، وكانت مد وحدث تنقل لشبه فتحس ثقله ولكن على نمط  
واحد بقل التصرف فيه ، ومعى لا تزان يوم بحيث وحدث منذ آلاف  
السين .

وشيوع الثنائيل وصوع المعادن وسج الثياب الموشاة بالخطوط  
والأشكال مع ندرة الرسم في قبائل برنج أمر لا عرمة فيه . لأن تقليد  
الحشم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقيد

ندى يوجب التصرف لتثيل العرص والطوب والقرب والعد حيث  
لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد.

ونماثلهم مع عبة لايقاع عليا - سمة أخرى تعرف بها بين سائر  
النماثل القديمة ، وهي سمة الخوف والتخويف . وهي كذلك سمة لا غرامة  
فيها إذا نظرنا إلى الأخطار التي تحدث بالرغى بين الوحوش والحيات  
وآدت الأرض وصواعق السماء . ونظرنا إلى العرص الذي يتوجه من  
صع كثير من نماثله . وهو لس الوحوه والأقعة التي تخيف أعداءه في  
ميدان القتال .

ولم تزل مهن القتال عند الرغى صربا من الفرس الحسيل لأها تمزج بين  
الحركة الرياضية وبين الرقص والايقاع والعداء . وليس أشبه بناصر  
الرياضة الحديثة من منظر الزجى وهو يقذف بالرمح ويوارى بين وضع يديه  
وكففيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه  
قد ركزه في هدف سمته

والرغى شجاع مقدم لا يهاب الموت ولا يكص عن الألم وقد  
تلهمه السياط ويسيل الدم من أهانه المرق وهو صابر لا يتنوى ولا يتأوه  
لأنه بحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت حبا لا يحمل بالرحال .  
وقد عودته محادثة الوحوش والأفاعى ومحاذرة الدائمة من المتربصين به أن  
يقسو عليها وأن تقسو عليه . وأن يحتمل انقوسه على نفسه كذلك . وفيه  
إلى حبيب الصبر والشجاعة عماد شديد حتى يحشى أن ينهم بالحد إذا  
صدع بالأمر فراراً من العذاب

وهو مصدق ومي يضمن بالعقائد التي توارثها عن أسلافه وأكثرها من

فيل السحر وعبادة لأرواح الخفية ، وتقليد الرقى والتعاويذ التي  
بعضه من فعل تلك الأرواح .

والوفاء فيه طبيعه لأنه نشأ على طعنه لرئيس في القبيه وطاعه . اساحر  
الذي يعلمه ويحميه . وقبلا بعدد أو نحو د واحد من يكسب ثقته  
ريشمنل على عطفه ورلائه . ولما بعدد ويحب إذا توحش وسلب منه  
الطمأنينة . فإيه ليرجع إذا في حياة مخاوف ولأخطار التي علمته الحذر  
الدائم بين الوحوش والآفات . أو بين الأسرار ليعمض التي يتكلم  
الساحر بجلالها له على ما يعتقد ويروم . فيعمل في حالة التوحش وسلب  
الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل المرحم الذي يتوقع الضحوم من كل  
مكان فلا يبالي ما يصنع وهو عاصب يائس محروم من العطف والحد  
رسعي قبل مرافقه برغى وتسجل عرائنه أن يسي أنا برفق  
حلقة عربه تحالف ما طعنا عيه . لأنا حريون أن نستعرب كل شيء ، د  
نحن توقعنا الغرامة ولا سخرت فيمر ب العمل ندر بعينه ماء لعتنا  
وعصربا دول أن بلغت إليه . ثم عرنا هذا لعمل بعينه حين يعمل  
الغرب فسرع إلى الله له ونحسه من البدوت التي لا تصدر إلا عن  
أمثال ذلك العريب . وكثير من عرائب الرندج أو عرائب الأحناس عامة  
لا تحسب من قبيل العرائب إلا على هذا الاعتبار

»

ولو شاء لانس لالتحق في هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية  
الكثيرة كما يلتفتون إليها كل يوم في حقائق لاجتماعية الصغيرة . فإنا  
سمع العدة في كل مكان يتحدثون عن بعض مشهورين بالسوء فيقولون  
عنه : إن صوفته حمراء ، ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره



فسرعان ما يشه به الناس ويعقبونه بالدم والتشهير ويخصي غيره بمعينه دون أن يشه أحد إليه فصلا عن دمه ولتشهير بمعته . وهم يستعبرون هذا لوصف من يعة الرعاذ الذين يرددون الخروف « لأحمر » بالرحر ويعقاب وهم لا يصنع شئاً غير أن يصبغوا إحيته في القطيع من دوات الثراء السود ولكنه يظهر وهي لا تظهر . فيعاقب وحده وتجو هي من الملاحظة والعقاب .

واحسن الأسود له عرته الكثيره في الأخلاق ولعادات . ولكنها إذا بدأت بالاعترا ب وكان لاستمرار سابقه لمرافقه كنا حلقاء أن نجد نعرته حت لا نغرة على الإطلاق . وحسباً أنه بجانب الناس في أصور الصاع وهو لا يفعل إلا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من بناء آدم وحواء

أن مداركه العقلية من الوحد قبل الحكم على طاقها الأصيلة أن تذكر بصروقات محتمة انتهى ما عدت بينه وبين أحيال البشر الأخرى في موطن الإدراك . وهي مباحث العلوم والصناعات

فليس من قصور العقل وحده أن نجد أن نرى مقصداً عن لأحاسس نساء والسرء في علوم الهندسة والصب ويطيعة والكيمياء . لأن حسنه لم تلحظه قط إلى الملاحظة في لبحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم لأخرى من حركات الأحرار المساوية ومن علوم الملك والطور الحويه ولأنواء . وم تلحظه قط إلى إقامة الصروح ومرونة البناء بالأحجار فيعرف من قواعده هندسة وصناعات البحث والمهارة ما عرفته الأمم التي تهتت لها الرسائل ودفعها الصرور إلى التشييد والتعمير . وم تلحظه قط في ترفيت مواعيد الري ولا لسيطرة على محارن الماء فيعلم الهندسة ويدرك حصائص

خوامد واسوائل وبرايق أسباب الحصب والفحط مراقبة المدير لستول  
عن عواقب لإهمال في هذا التدبير . وم تمنحه فقط إلى لافتنار في طهو  
الغداء وسح الكساء وصرغ الآبة والأدوات لتي تستخدم في هذه  
لأغراض . ولم تمنحه فقط إلى تعتيق الحيلة في جمع الطعام وادخاره  
وصيانتة من لعط والفساد . ولا أحتنه إلى تعتيق الحيلة في ابتداع  
هاين الحرب من مطولة لمحصار وتوزيع للأسلحة واعتماد على أسلوب في  
الكر والفر غير أسباب الأحياء لمحدقة به في جراءة تارة والاستحقاء تارة  
أخرى . لأن أثناء القارة أحمعين درحو على حد واحد في الهجوم  
والدفاع واستخدم السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المعبرون  
والمندفعون ، فلا حاجة لهم إلى التفوق والاحتيايل على مختلف المواقع  
والأسلحة والأساليب

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وحدوه سهلا مبسراً غياً  
عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فإذا بنى من وراء ذلك سر  
يجهلونه أو محذور يتقونه فهناك الساحر كميل به يكفهم مؤنثه إذا صدقوه  
وأطاعوه ، ومن لم عاشوا حياتهم كلها وقصوا عصور لتاريخ وما قبل  
لتاريخ وهم بين الدعة ولطمائية إلى العيش ، وبين انقار والجلاد .  
وبين التصديق والتعود بامرق والطلاسم ورمو هذه الحيلة عواماً بعد  
عوام وأحقان بعد أحقاب ، بعير حاجة إلى التدين أو التجديد

فالأم التي عرفت الهندسة والصك والعبرة والكيمياء وأدوات الدج  
وارقاها إلى عرفت أنها لا تستطيع أن تعيش في بيتها حققة حويلة  
بغيرها . ولو عاشت في القارة الإفريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر  
فيها ، ولا شك أن الزنوج لو بدأوا حياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك

الأقوام لا اخترعوا ، حترا عهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم  
بغير فارق كبير في مجهر الأمور .

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ما حذقه لإسان الفطري معرل  
عن العلوم الأخرى فقد حذقه اسود وبرعوا فيه . ولم تفهم خاصة لازمة  
لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة  
والتشريم

ونحن لا نعى بهذه المقابلة بين ضرورات اسود وضرورات غيرهم من  
أحاساس البشر أن العرق بينهم وبين تلك الأحاساس معدوم أو قريب  
الاحتصيل والاستدراك . وبكنا نعى أنه يرجع إلى أسباب تهور عبيهم كما  
يجود على غيرهم فهم وسائر البشر في أصوها سواء

ولو نظرن إلى المصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الأدبية فححصوه  
وأعادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً  
محموداً في مجال لآداب والعلوم . فقد بع مهم في العربية شعراء  
معدودون من طراز عثره وسحيم عبد بنى الأحاساس ونصيب والأعره  
المشهورين لديهم أحادوا الحماسة كما أحادوا الغزل والذنب . وبين عرهم  
والأعاني المرقصة التي عكف عليها اسود من آلاف السنين صلة قريبة  
لأنصب النقطة فيها . ولكن الطبقة العمية والنمسية - التي ارتفعوا  
إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآناد الطوال التي قصوها في المعيشة  
لآبدة لانحجيم عن الظروف الاجتماعية إذا وحدوا السيل إليه .  
وما أحبب شعراً من شعراء الحصاره يترفع عن توقيع هذه الأبيات التي  
نظمها سحيم المعشوقة مريضة فقال

ماذا يريد اسقام من فر كل جمال لوحه تبع

ما يرتجى أحباب<sup>٢</sup> من محاسنها      ناله في القباح مشع<sup>٢</sup>  
غير من لونها وحصرها      فارتد فيه الحجاب والبدع  
لو كان سعى القدء قلت له      ها أنا دون الحبيب باوحد

هني هذه لأبيات من روح العكاهة ودعابة الطرف والنقطة إلى محاسن  
الملاحاة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل

»   »   »

ويسدو لنا أن هوارى الإدراك لم تصل العقول في أمر الجنس لأسود كما  
صطلها ذلك اللون المائل للضر قبل مشوب المورق العقلة والحقبة للمصائر  
والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لاهودة فيها . و يطلق  
المحاسون في طريق البحر الأحمر وبحر هند وسير السيل يحملوهم إلى بلاد  
العرب وما بين البحرين

كما يحملوهم إلى مصر وايبوان والرومان . ولم تكن الدنيا الجديدة  
تتكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذه النساء اللدى بدأت به  
أقدم الأمم من ألوف نساء ، ولعل قصائل هذا الجنس وفي مقدمتها  
لوهاء والنصر والقناعة كانت أسرع من بقائعه في الحياه عليه . وهذا  
نمادى المحاسون في نقل السود إلى أمريكا وانقطعوا عن نقل السود حمر  
إلى أوربا بعد ستون هلية . لإختلاف التجربة وصياح الأمل في صلاح  
هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل انفيذ .

وحلاصة مايقار في تاريخ الجنس الأسود إنه جنس قديم معروف في  
القدم يوغل في أصوله إلى ما قبل التاريخ برمن بعيد  
وإنه جنس قد وقف به الخاء عند حدود الخطر لأبلى لأن معيشه في

الفارقة الإفريقية ، ثم نتجته في كشف العلوم وتعمير المدن وإختراع  
الصناعات وتدبير وسائل الأعمار والخبرة للمستقبل السعيد . ولكنه عرف  
كثيراً من انقضاثل وملكات التي بوائمه في بيته المستقره . لأنه عرف  
النضال والمرح والإيمان معروفا لشجاعة والوفاء ولصبر على الألم  
واستبط القلوب التي توافق مرجه وإيمانه بالجهول

وكأنما اتفقت عليه منذ لقدم عرادي الإحباط حسيماً ولم يسعده حظه  
ساعت واحد من بواعث الإيصال والرعاية . فاصططحت عليه أسباب  
الحشع والاستغلال وعراية المطهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطيع  
والنعويد . وجعلته هدفاً يسيراً للقصاصين والسحاسبين الذين يحفرهم الطمع  
ولا يبرعهم عنه وارع من وشائج العطف أو رواجر الأخلاق

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طويلاً بعد عصور هوال إلى عصر  
هد الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الإنسان  
وحقوقه . واشتعلت في الكرة الأرضية حربان عالميتان في النصف الأول  
من هـ القرن العشرين ولا تزال الكلمة الناية التي تقال لإيصاله وحماة  
حودبه أكبر وأرم من الكلمة التي قاسها لخصارة الحديثة إلى الآن

في هـ السنة التي نحن فيها ( ١٩٤٥ ) انعقد مؤتمر الجماعات التي  
تشتعل بالتشير في الحرر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه  
بأهم الحصار إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات  
البريطانية ، وأعلنت حجة لكائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي  
برجومه « أن تحرر الأمم المتحدة وعودها بتكررة بالنسوية بين الأمم  
والعناصر في فرص التعليم والحياة »

ولا تزال الفوارق الحسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد

مدعوات فيها إلى المساواة وإعراض عن المراعى العصرية التي روجها  
 خصوم الدولة الأمر كية في الحرب البعيدة الحاضرة ، وفي لولايات  
 الخيرية تقوم الفوارق بين البيض والسود بخصوص القوانين والأوامر  
 الحكومية . ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة  
 والبرول معهم في الخانات والمطاعم . ولا تعلم أسانهم في المدارس التي  
 يتعلم فيها أبناء البيض . ولما صدر القانون الذي يحول الطفل الأسود  
 حقاً في التعليم كحق الطفل الأبيض مع اتصال المدارس والجامعات .  
 تبين من التشديد أن مساواة صورة لاحقيقة . وأن التلميذ الأبيض يكلف  
 الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في  
 السنة ولا تزيد كمية التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم  
 من نص القانون . وتبين أن الفارق في ولاية مسيسي بتجاوز ذلك كثيراً  
 لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة  
 الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال

وقد ألمح في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة  
 بين البيض والسود . ولكن هذه التفرقة ما تزال قائمة بحكم العرف  
 والعادة على نحو لا يقل في صرته عن صرامة القوانين . فلا يرى الأسود  
 باراً يندى من الفنادق الكبيرة أو حالماً في مطعم من المطاعم  
 الفاخرة ، وإن كان من أصحاب الثراء

• • •

وإبقاء الحصارا لعريه كل هذا لإبقاء في تقرير مبدأ الإنصاف  
 فصلاً عن تعيينه هو المقياس الصادق سبق الشريعة الإسلامية في هذا  
 نصير الإنساني لتتوهر المهجور من قدم الدهور . فيها حصص إلى

ادب لإصناف والمساواة بين بني الإنسان - مد أربعة عشر قرناً بغير ملاحق  
من مصالح لأفصادة أو من عادات لعرف والأحلاق . من جنس  
إليه على كره من تلك المصالح وعلى دعم من تلك العادات . واحترت  
على سطر - مادة الصاعية سطر الروح الرفيع . ولا أحب الدس ديباً  
مما يمكن به سطر روحى يعنه على طعيا المصالح واشتهوا

، ، ،

وقد كان هذا السلطان الروحى هو السلطان الذى دعى له السادة  
والعد عند ظهور الدعوة الإسلامية بين قبائل لمادة العربية . وشتم  
على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مؤيد ضعيف عربى فى  
أرض الحجاز . كما اشتمل على نبي بكر والمباروق وعثمان بن عفان وهم  
سادات مكة وأقطاب قريش

والذى بعينه فى هذه المقدمة عن تاريخ الأحسن والحسن الأسود  
خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال

وليس الملتقى بينها بغير

من يحمل الصفات المتواترة التى وُصف بها بلال بترأى لنا أنه قريب  
الملتقى بخصائص الحسن الأسود التى أحصاها فى هذه الصفحات  
ولا أحب أن نقول إن الذى يتصف بثلاث الصفات من يكون حتماً  
لزاماً إلا من الحسن الأسود بخصائصه المعلومة فلا يزال من الحائر حذاً  
أن يكون بلال على تلك الصفة فى عدد البون ولا يكون من القبائل  
الإفريقية لسوء . ولكن لدى يقل ولا يجوز حد صحة فى المقام  
أنه لم يكن كذلك لكان هذا من عرائب المصادقات . ولاداعية عندما  
الآن لتقدير تلك المصادقات

هو لم يكن بل اسود لإهاب لكات في صفاته اسمية علامات  
لاستعرب في الأحناس السوداء لأنها من خصائصها الميزة التي تبرز  
فيها عند مراقبتها على الإحمال . ومنها حب لايقاع الموسيقى وسليقة  
الإيمان والتصحية والعباد والصبر على عذاب الجسد والوفاء من يسترلى  
منه على مكان الثقة والإعجاب .

ولكن الحسن الأسود لا يخنوبه كله على ما يظهر من بعض صفاته  
الحسنة فيما عدا لون السواد . فلم يرصف بالعطس ولا يعلظ الشتمين  
ولا يشعر لمتقص المتصوف الذي حرص به الزنوج . والدس يشاهدون  
على هذا التكوين بين أم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام .  
وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قدم بالأجساد السامية أو بالعربية مها  
على التخصيص . لأن رحلات العرب إلى سواحل أفريقية الشرقية قديمة  
قبل الإسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأحناس من يربط بين حبة الأحباش وجلة العرب -  
ولاسيما النابية - برباط وثيق . لأن عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور  
أهل الحبشة إلى اليمن ميسرون معهودان من أقدم العصور .  
وقد قيل في تاريخ بلال إنه من الموالي لمؤدين تحكة أو بالسراة  
بنابية . فأصدق ما يقال فيه إنه من سلالة ربيعة سامية . وأنه على أقرب  
ما يكون الزيج من خلائق البعسة أو المستعربين



## العرب والأجناس

أبحاث في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العصر ووقار  
الأحس ، فأننا كان قول لعلم في هذه العنصرية - أو الجنسية  
والقول الذي لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدور حول هذه  
العنصرية ، وينتسب في بعض الأحوال تحت التفرقة بينها وهما  
المفارقة الجنسية والعدوة الجنسية .

فقد تكون مفارقة جنسية ولا عدوة .

وقد تكون عدوة جنسية ولا مفارقة .

لأن المفارقة صيغة الجماعات حيث كانت من قديم أرمها . وقد  
توجد مفارقة في الأمة لوحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين  
أنساء النساء وبناء الجنوب . وقد تتماخر أسطوب من لقيلة الواحد  
ولا تتعادي ، وقد تتعادي ولا تتماخر ، وقد تتماخر وتتعادي في آن  
وهي من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفارقت كثيرة بين أنساء القاهرة وأنساء  
الإسكندرية ، وبين أنساء الصعيد وأنساء لريف ، ومفارقات أخرى حول  
اللهجات والأدوار والأطعمة لا تتجاوز المفارقة إلى الحد في عامه  
أوقاف .

ومثلها متكرر يشاهد بين أنساء لأقاليم الإنجليزية أو الفرنسية أو  
الإيطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد وهو من  
أرومة واحدة .

وقد تتجاوز العناصر أوقاف السير ولا تتجاوز المفارقة بين حدود  
المفارقة لسانية والمفارقة الكلامية . ولكنها تتجاوز المفارقة لعنصرية إلى  
العداء العنصري ككل المدفع إلى التنازع بينها على معمم واحد لا ينأى

لا حادها بغير القصاص على لا أخرى أو دلائها . ويستحكم العداء بينها على  
الرمس إذا تداولت بينها الدخول والعارات فلا يحمها لمعم يومئذ كما يحمها  
الشأر والانتقام .

والعرب قد عاش في جزيرتها بمأس من سطوة حيراتها إلا في أطراف  
الجزيرة . حيث لا يبلغ الرراع بينهم وبين أولئك الجيرب مبلغ الإبادة  
ولا استئصال

وعاشو ثمة وهم يحسبون مكان حيرهم ويحس حيرتهم مكانهم  
فوجدت بينهم أسباب المفحرة ولم يوجد بينهم أسباب العداء الدود .  
وأملى التاريخ على العرب وجه المفحرة بملاء لا اختيار لهم فيه  
فقد كان حيرهم الررمس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة  
ومعاش ومتاع . وكانوا يعيرون حيرهم العرب شطف العيش وسوء  
الطعام والكساء . وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدود من الخاء  
والترف وغرارة الأموال والأرواد . فإذا فاحروهم تركوا المفحرة بطعام  
أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم .  
ورحموا إلى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه . وهو فخر  
المصاحبة وعزقة لأحساب والأعراس .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أحلاط لأحساب عندها لحسب العريق .  
وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر وستطعنوا المقالة فيه . وم يشب  
بينهم وبين مفاحريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبدون فيه أو  
يبادون فوقعوا بالمفحرة دون اللدد في الخصومة الدموية . ونقلت عنهم  
وعن مفاحريهم حديث مستصرعات في هذا الصدد هي أقرب إلى

مساحلات الأدباء في موقف الدعاية منها إلى الممارعات التي تسلك فيها  
الدماء .

إن فخر الروم والفرس بياض الألوان قال العرب تلك وجوه  
مقشرة ١

وإن فخر الروم والفرس بالحواء الخافض فخر عليهم العرب بالحدود  
وبدل الموحود

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فائتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة  
وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداة العنصر أو عداة الجنس كما عرفه البيض  
والحمري القارة الأمريكية ، أو كما عرفه الأوربيون والأصلاء في القارة  
الأسرالية ، أو كما عرفه السلافيون والنيوتون في أوربا الشرقية ، أو كما عرفه  
الإسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المعربة ولأسبان في زمن من الأزمان  
وأذا سمعت الزرابة بالعبد على ساد العربى فأحر شيء يتأدر إلى  
الدهس أنهم يقصدون عداة الألوان والأحاسس ، أو يحصون اللون الأسود  
بذلك الأزدراء أو ذلك العداة .

لقد عنت على بعض العرب أنفسهم سمرة تصرب شديداً إلى  
السواد ، وكان من سادتهم من وُصف بخلعة اللون وشابه الزنج بالإنجاب  
حشش والبشرة الماحمة .

إذا قالوا : العداة ، فهم لا يقصدون الزنجى ولا يحصون سواد اللون  
بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يمت أساره وكل حليب يباع  
رشرى في الأسواق ، ومنهم من حضر الوجوه ويبص الوجوه .

ويقصدون على الأحص كل إنسان مجهول النسب لا يتسمى إلى أصل

من اصولهم المشهورة . إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخرة نسب  
وقد فرضتها عليهم معشة البادية ومفاحرة الحاضرة ماثات السنين .  
فلا يُردى العبد عندهم لأنه حالك النول ولا لأنه من جنس يعادونه  
ويعاديهم . ولكنه يردى لعدة اجتماعية لا لعدة عنصرية . وقد تزول هذه  
لعدة من حيث لا تزول على العناصر وعداوات الأحناس .  
وجاء زمن على الدولة العربية بعد انساعها وسطوتها كثرة فيه حب  
الزنج السود من القارة الأفريقية إلى غرضات المحار المقارية لمعاصمة  
العربية . وأكبرها البصرة في ذلك الحين . فشح بين الزنج والعرب يومئذ  
عداء يشبه عداء لأجناس في عصره الحديثة والقديمة . وشبهت فتنة  
الزنج بالبصرة على مثال لقن الحسية التي نشهدها اليوم وتوصف لنا في  
التواريخ . ولكنها كانت عابرة لم تلب عابرة . فذهب أثرها بعد  
ذهابها بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الحرية  
وحواصرها . وكان الرجل العربي بولد الحرية السوداء ويتبى وليدها إذا  
حب وصحب حاله وظهرت منه الفروسية والمصاحبة . وربما كان به عبد  
يحمد حصاله فيعتقه ويستلحقه ويروحه بنته أو ذات محرم منه . ولا يمتعه  
أن يصنع ذلك عداء الجنس أو أعضاء النول . بل يمتعه عرف اجتماعي  
توجد به البطائن في كل عرف يدور حول الزواج . ولو بين الأقرباء .  
وعيناً أن يحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب  
إلى الزنج أو بناء حام كما يعرفون في علم الأحناس  
فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقيه كما عبر الأثيوبيون . ولعله أن  
يكون خلاصياً من الساميين والحاميين ويعب على الظن أن بلالا .

صاحب السيرة في هذا الكتاب - كان حامياً حشياً وم يكن رجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسون وصف الملامح التي تميز الأحاسيس والسلالات ، ولم يدكروا من أوصاف بلال القطس ولا الشعر الصوفي « المفلقل » الدين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أصلك العبيد حالاً قبل الإسلام ، وكنت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية صلماً للصعيد لا عداوة سحنس أو كراهة للسواد ، فقد كان شأن لعبيد كشأن كل مملوك وضع النسب قلب العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثار والدية ، وكان العبيد أسوأ حالاً من وضعاء السب لأنهم لا يسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة فكانوا ضحايا الظلم والتهرقة في المزار والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم "لأنه قسوة كما تنكره لأنه يقص شريعة المساواة . وقد تكمل الإسلام هذا الخلاص من حاييه ، لأنه ينكر ظلم الفسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلجى دعوته ، وأن يدعوا إليه

الرق في الإسلام

كان الإيمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الإنسانية ، وطريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الإيمان بالروح يعنى الإنسان التبعة وإن « كل نفس بما كسبت رهينة »<sup>(١)</sup> وهذا هو أساس التكليف والحقوق

ولأنه يوحى إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء للإيمان بالروح سابقاً لرقق لاصح الاعتراف به في الأديان لنى تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الإنسان ببيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها اإسادة والعبيد ، فصلا عن الإيمان بتفصيل روح لعبه الصالح على روح السيد انذى يعوزه الصلاح

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الإنسانى بآلاف اسين ، وكان الرق في تلك لأحقاب الطوار قد امترح بصنام الثروة ونظام المعاملات فأصبح امتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أدوق الناس وحلافهم في لعصور لقديمة قد بلغت من اللطف والتهذب صلح ارتفع عن تسخير الآدمير كما يسحر الحيوان أو كما تسحر الآنة الصماء . هارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقاسها وجهاً لوجه في معظم لأحوال . ولم تكن لعبيد أنفسهم أنفة بعرف بهم عن هذه المترلة لى فرصها عليهم ضرورت الرمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هدام يكن لمصالحين الدينير بد من التوفيق بين عقيدة بروح وإباحة بيع الإنسان وشرائه كما تباع الآلات



فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بحسبه حر بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين

وكتب القديس بولس إلى أهل ( أفسس ) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لسيادتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح . وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويبرمهم الخشية من سيادهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح . وحاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمدته أحبار رومة في المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة السكك ولقسيين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تتراد لعمل من الأعمال ولم يرى نظام الرق شيئاً يعاب ، فنادم في الناس من يعجز عن كفاية نفسه فعليه أن يعيش في كفالة غيره ، ونبه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة مأخض النار أمراً مائعاً لأعضاءه فيه ، بل لعنه من المأثور محمود عبد من يرفضون الحياة وقد واجه الرق بهذا المراجحة حسمه من الحرمان الذي لا يباقي الخطة مثلي في آداب الديانة وخصائل لسلوك ، وسهّل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسر الضرورات وتقيد بعض الحركات ببعض في نواحي الطبيعة وخصائص التكوين

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوانات حتى ما يؤدي منه ولا يفيد - قد بلغت عقائدها القسوة القصور في معاملة الأرقاء . فإن أناساً من براهمية الهند كانوا يصربون الدله على العبيد

معرويين باسم السودا ، لأنهم خيفوا من أسهل أعصاب الآله فلا تبرحهم  
وصحة اندل ما لسوا ثوب الحياة ، فأسر ما يعاقب به الرقيق على  
إعصاب سادته أن يسلم لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من  
الناس

وكانت الحصار تلتف من هذه القسوة بعض لتطيف فتجرى  
انعدة أحياناً في الأمم المنحصرة بالشفقة على العبيد والحواري ونحويلهم  
بعض حقوق المساواة فكان المصريون الأقدمون يجبرون معاملة الإماء كما  
تعمل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بانقتل على من يقتل الرقيق في عمر  
جريرة ، ويلزمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرئ ذمته من  
إبداء العبيد والإساءة إليهم ، ويجمعون هذا الإبرء حوراً لا خاص منه إلى  
خطيره الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأحرء لأنهم  
كثيراً ما كانوا يؤدبون في مصر عمل الأحرء بلم يكن عمل العبيد  
فجنحت بهم الرعية والقدوة إلى إيصال لأرقاء والأحلاس ، وأنكروا  
الإرهاق كما أنكروا انصرب ولايداء في معاملة الأحرء .

وقال هيرودوت إن العرس في زمانه كانوا يجمعون عقاب العبد على  
القفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون السيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا دُنب  
مرة بعد أخرى ، وكانت شريعة القرمس أرفق بالعبد على الحملة من  
شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترحص له في الراحة وتكره اعدوان  
عليه . وربما يرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة الشرى وقتناء  
الروحانيات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحصار في المدن الكبيرة وقنة  
لحاجته إلى إرهاب الأرقاء لتحصيل ضرورات معيشة . ولعنهم قد

استمادوا أيضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين  
اليهود وبين شعوب النهرين

ولم نسم أمة قط من إقرار نظام الرق وازدراء العبيد على اختلاف  
عناصر الأمم وأجناسها

لما قيل عن فصل أم الشمال الأوربية على أم جنوب كافة في هذه  
المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أم الشمال لم  
تنح من نظام الرق 'مما في الأخلاق' و تعردا بالعصاة الإيسائية التي  
تُدعى للشمالين في الزمن الأخير ، ولكنها حلت من نظام الرق لأن اقتناء  
الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحظ عنها . فهي نصيبة  
لضرورات لاقصية الأخلاق ، وهي مرة البقاع لامية عناصر  
الشمال .

ومازل الرقيق محروماً من المساواة الإيسائية إلى هذا اليوم في الأمم  
الأوربية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجبر قس  
العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الأسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام .  
ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاة إرقاها أو تعذيباً عقاباً منصوص  
عليه .

تلك كانت حالة الرقيق حمئة في القرون الأولى وفي القرون الحديثة .  
وبل ظهور الأدب 'الروحية' وبعد ظهور تلك الأدب

ومن الأسباب التي تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بهم في  
العصر الحديث أن قضاء العبيد كد يسير لبعض البلاد أن تنافس البلاد  
التي تستخدم العمال الأحرار في الصناعة وتسد لهم أحراراً لا يصنع لعبيد  
لنود في مشه ، وكان اقتناء لعبيد يصير 'ولتلك العمال الأحرار في الوقت

الذى عرفوا فيه حقوقهم وهضوا لمطامنة بها ، وساعدهم على المطابقة بها  
أصحاب الأموار الذين لا يستبدون من سحر الأرقاء

ومها يكن الرأى فى حقيقة هذه الأسباب فهى مما يدخل فى التقدير  
عند بيان فصل الإسلام وسبقه للمحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب  
وأكرمها فى مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

فهم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذى أمر به الإسلام مصلحة  
اقتصادية على مرض من هذه العروص ، بل ربما كان من لمصلحة إبقاء  
الرق على نظامه الأول ليعرغ الأرقاء لأعمال المعيشة والسحر ويخرج  
الأحرار لأعمال الجهاد والرياسة .

كذلك لا يقال إن الإسلام تبيّن النظام القائم فى المجتمعات القديمة  
كم تبيّنها الأديان الروحية فدرت حول المشكّة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى  
معظم الأحوال . ولم تأخذ بأيدي العبيد إلا بما كانت تفرصه عليهم من  
الصداقة وتزجيه إليهم من العراء المطورى الدار الآخرة

فلا يقال إن الإسلام قد مع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى  
وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا نوافق بين  
الإيمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . فإن الواقع أن  
أدياناً « روحية » كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق  
ولا يقال إن الإسلام قد جاء بآداب الرق بأنزله بعد دهاب الحاجة  
إلى تسخير الأرقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية فى مجتمعات الشرق  
والغرب . فإن الواقع أن هذه الحاجة طلت قائمة فى البلاد الشرقية  
والعربية إلى زمن يذكره الأحياء . ولا تزال قائمة حتى اليوم فى بعض  
الأمم .

فإنما هو يدور فصل خاص من عمل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية  
والتي هو بصير صريح في عالم الروح يحجب بتدبير الإسلامى وحده بين سائر  
الأديان

• • •

كان في وسع الدعوة الإسلامية أن ترمي نظام الرق في العام العربي وفي  
العالم بأسره لم تتركه حيث كان فلا يحجب عليها ذلك في حبها -  
إعصاء معينا سأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من  
المسائل الماصقة التي يؤن السكوت عنها بالإعصاء أو المداراة .  
ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تحمى شيئاً لو أنها أهملت  
مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين على يقين ذلك كانوا  
يتحشرون حسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والإماء كلما ساءت حالهم  
بعد مآذنتهم بدخولهم في دين الإسلام . وكان أبو قحافة يمثل الرأي  
الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصديق بدن المال الكثير في سبيل ربه من  
الضعاف المهاربل يشقون كاهله ولا يفنون عنه أقل عاء  
فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق  
القديم غير باعث الفصيلة المثالية التي نعى بطلب الكمال ولا تحفل  
بالمصلحة المادية قل احتمال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الإسلام في أوسع نطاق لتبديل أو على  
أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل في أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية .  
لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأحناس والأقوم فجاءه أو على عليه  
وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لأفضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ،  
وألقى إليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً  
حنبياً والبار لمن عصاني ولو كان شريكاً قرشياً » أو كما قال

وحصر الرق مع هـ في سبب واحد من أسباب الاسترقاق . وهو الأسرى ميادين الحروب ، فلا يملك الرجل أو المرأة بالخاصة والاحتشاف . ولا يعد من العبد إلا من وقع أسيراً في ميدان القتال أو أن يفدى نفسه أو يعديه من يعديه

وقد عصت مئات أسنين بعد ظهور الدعوة الإسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة إليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو يتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء . ولا يقع في بعض نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستسار مقبولين في شرعة المتحاربين .

وم ينته عدية الإسلام بمسألة الرق بتصديق بظافه وحصره في هـ . السبب الوحيد من أسباب الاسترقاق . بل أمر المسلمين بقول الفداء أو من وهو الإعتاق بغير فداء « فإتدما بعد وما هذا حتى تصع الحرب أوزارها » (١) .

وأوحى على علم أن يقل من الأسير تنعيم فديته حتى يستوفي عى ستة الرقق والسماحة : « والذين يتبعون الكتاب مما ملكك أيديكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من ما الله الذي آتاكم » (٢) . وقد جعل الإعتاق حصة تكفر عن كثير من السيئات . وفرصه على الذين يحلفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات وإطعام المساكين . وجمع وصية الرقق بهم مفروية بوصية الرقق بالآباء والأقربين : « وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والمجاندين والفقراء والمجانين والصالحين وابن السبيل » (٣) .

(١) سورة محمد ٤ (٢) النور ٣٣ (٣) النساء ٣٦

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « لصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديث في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الأحاديث « لقد أوصاني حبي حريص بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا يستعد ولا تستخدم » .

وتحاور لإشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة إلى لإشفاق عليهم من الكلمة الحارثة فكان عنه السلام يقول « لا يقبل أحدكم عبدني وأمتي وليفل فتأى وقتي وغلاسي »

أما صرب لرفيق بعير تأديب محتمل فهو ذنب كضاربه العتق . أو كما قال عنه السلام « من لطم مملوكه فكمارته عتقه » فإذا قتله فهو يقتل به في قول أشهر الفقهاء

وقد فصل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على لرواح بالحرمة المشتركة . وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل وعترف بأنها وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه ريداً وروحه بعقيلة حرة من عصابات بيته . ونسبه وأدم أنه أسامه من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين . وفي الجيش حنة من أخلاء الصحابة مهم عمرين سلطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في مثل يده وفي مثل غيره تفوق ساحة هذه الرعايا على شرط « فيها من الساحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر » وإلى آداب جميع العصور فكان يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الصيام ويقول للمسلمين « هم إخوانكم وخوكم جعلهم الله تحت يديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويسه مما يلبس ولا تكفوههم ما يعطيهم » فإن كفتموهم فأعيبوهم » .

وأكرم ما قام في هذا الباب وكلمه كريم « بما ما عد كل  
كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

□ □ □

هذه لمصايا ومعاملات كانت كلها من فص الأدب لعلوية الرفيعة  
ولم يكن شيء منها قط من إبلاء لصعوبات لاجتماعية أو المصالح  
لاقتصادية . بل هي ولاشت قد تقررت على الرغم من صعوبات  
لاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت عالية في تلك الآونة على سحريرة  
العريية وعلى غيرها من أرحاء العالم المعمور

وهي لم تنقرر بأبداهة دفعة واحدة في مستهل الدعوة الإسلامية  
ولا تقررت كلها ر بعضها قبل إسلام بلال ورملائه من الموالي والإماء .  
لقد تنبعت الأحكام لإسلاميه في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين  
لمسلمين والمشركيين . وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك  
لحريتين

من الخط أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت إلى الإسلام من  
دخل فيه من الموالي والإماء . وإيهم سببوا إلى الدخول فيه طلباً براحة  
الحسد وهرباً من مظالم الجادة ومتاعب التمحير .

إن يكن هناك أثر للمعاملة حسنة في إقناع بلال ورملائه على  
لإسلام فهو على التحقيق أثر لثبات الرقيق الذي تمثلوه في معاملة النبي  
عليه السلام لصحبه ومواليه وكل ضعيف منهم . إليه ولم يكن سراً  
مجهولاً بينهم أن النبي عليه السلام أحسن إلى مولاة ريد من حارثة فأنساه  
بأه ودوبه . وجاهه هؤلاء بعتوبه وعرضه عليه لحرية والعودة إلى



أحضان أهل قاتر صحبة انسى على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي  
ظلال وطنه الذي فارقه مكرهاً منذ سنين .

عهد الختان الربيع قد كان له ولا ريب أثره الداع في تحييب للإسلام  
ونبى الإسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكن طلب لإسلام عند أوثق الأرقاء لم يكن طمناً لراحة الجسد  
ولا مفاضلة بين عيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريج العقائد الدينية أن أحد يقبل على الدين  
مساومة على الراحة ورفاهة العيش . ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة  
لعيش قط أعوان عقيدته ناشئة في عهده الأول وهي مقدمة على المعامرة  
والجهاد تتطلب الصحابا وتفرص على الأتباع لوان العداء

وفي حالة بلاد ورملائه خاصة لم يكن الإسلام راحة لهم ولا انتقالاً  
من جانب لخطر إلى جانب السلامة والأمان . بل كان على تقيص ذلك  
انتقالاً من جانب السلامة والأمان إلى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم  
دافع لأن العربي يحميه من الصم آله وعشيرته ولا يبيع الأمر مبلغ الخطر  
على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد نأس من لوفاق . ولا حاجة إلى  
قتال صريح أو غير صريح لأهدار دم العبد المملوك لرهون تمشيئة  
مولاه . وآهون من ذلك عند مولاه تعديبه وإعناته وحرمانه الراحة  
وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب لإسلام عند هؤلاء لأرقاء طلباً للنقطة من رق  
ثمبل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاس إلى سيد رحيم لأن الإسلام في  
مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من رتبة الأسر عند سادتهم الأقوياء . ولم

يكن العتق جزء موعوداً لمن ينصب سيده المشرك ويرضى النى عليه السلام بالمخول في دبه . فإما حاء العتق مصادقة وانفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الصنفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لاشك فيه . ولم تكن الحاجة الا وعداً مأمولاً م تيد تبشير به ليعيان .

فمن اخطأ كما أسلفنا أن يعزل إيمان العبيد والإماء بأحكام الإسلام في معاملة الأرقاء ، أو ليطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرف تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الإسلامية برمن طويل ، وإنما كان انهاء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرحوه من أمل بعيد . إن سلحت له الحياة

وما زالت العقائد أنكرم على ضمير الإنسان من هذه الممارسات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، ومازل قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البعية منها ، ونهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد

وآية ذلك أنه لم يؤمن إنسان قط بعنيفة تحصه ولا نعم سواء إنه ليسوم في سوق التجارة على العيمة التي تحصه دون غيره ، ولكنه إذا آمن بعقيدته من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلا بد من عاية نعمه ونعم غيره على سواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتحظى مصالح افراد ومساومات الآحاد

وبلال حين آمن بالإسلام قد آمن حقاً بالدين الذي يصف العبد ، ولكنه قد آمن به على نسبة التي ترصى الكرامة الإنسانية لا على سنة المساومة والمصادقة ، أو هو قد آمن به إنساناً كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تحليل إسلامه إنه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وإنه إيثار للحير الكبير على الحير الصغير ، وإنه استفادة طلع تهتدى إلى الصراط المستقيم . وإنه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهة التي يريح الأجساد

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والإماء من كل راحة يرجوها بعد الدخول في الدين الجديد ، أيا ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرضاء في أحل قريب أو بعيد

وقد عبرت القرون عن وصايا الإسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وحائفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهي التي شرعها العقائد والأديان

ولكنها ، سواء روعت أو حوفت قد كانت كساً عمياً به أثر من النعم الواقع في تاريخ بني الإنسان ، وقد بقي لها هذا الأثر إلى أن بطل الأسر وبطل الرق شئى درائعه ودواعيه ، وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الأزمان

فبعد وصايا الإسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه أوروبا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطالبون الاستقلال نزل بمصر موح من الأسرى اليونان يريدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة ودوى الثراء في القاهرة والإسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الأسرى إلى بلادهم واعتناق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال دونه ، فأثروا اللقاء جميعاً في

اليوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون ذلك ، كما جاء في بيان المدبوع لإعطى الذي يعط به تنفيذ تلك الشروط .

ومها يقل القاتلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا يسكر في هذا لمقام ولا يسى أن أولئك الخند الأوربيين الذين أسروا واهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا يحمّلوا البقاء عند سادتهم لمسلمين لو كانت وصايا الإسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .  
فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان العصائل المثالية في نشأتها الأولى ، وقد يشدها المزمعون بها حبالاً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن تورن بالميران وتشحص للعيان .

نشأة بلال

اتفقت الأقوام على أن بلالا كان من أبناء الحبشة المولدين ،  
وجاء في وصفه أنه رضى الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طويلاً  
أجماً أى فيه انحاء كثير الشعر خفيف العارصين »

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد  
كانو كثيرين بين الحبشة وايمس من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق  
عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع  
خلوصه من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من  
السلالين وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السبب شيئاً على عادة السود ،  
ففى الثقاب هذا الزعم وأكد بقيهم أنه كان يقيم الأذان وفيه السبب  
والعناد .

ويختلف فى مواده فيقال إنه ولد فى مكة ويقال إنه ولد فى اسراة ،  
وربما رجع القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالا  
رضى الله عنه رجع إليها حين هجر فى الزواج  
وأرجح الأقوام فى سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بسحو ثلاث  
وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوام حتى يبلغ اختلافها بينا رهاء عشر  
سنيين .

وأبوه وأمه معروفان ؟ أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حممة ، وكان ينز  
بابن لسوداء إذا غصب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو  
إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة

ويحسب بعض الإبريج الذين كتبوا عنه أنه نبي من أمه كلمات  
لتوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة  
وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام

برسالة التوحيد ، وهو حسنا حائر ولكنه بعيد ، لأن الأحباش في ذلك  
الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو قرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون  
برسالة التوحيد لمحمدية ذلك الترحيب

ويذكر بلال أح يسمى خالداً ويكنى بأبي رومح ، والأعلى في  
الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على ستة المؤاخاة بين الصحابة  
التي سنّها عليه السلام ، وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر بن  
عبد الله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما روى من  
أخباره .

وكانت بشاة بلال بمكة في بي حمص من بطون قريش المشهورة  
وفي بي حمص هؤلاء بشا أبو محذورة أحد ثلاثة اختارين من مؤدبي  
النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم . ولا يُدرى  
أمن محص المصادقة أن كانت بشاة اثنين من الثلاثة في بي حمص أم كان  
لهؤلاء القوم بمص عتابة بالصوت والعناء ، وإنما المعروف عن القوم أنهم  
كانوا أصحاب الأريام والأيسار في الحامية وأنهم كانوا من حزب عبد  
لدارحين شجر خلف بيته وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بي عبد  
مناف خلاف قديم .

وإذا كان لبشاة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدوري بعضه لعبادة  
الحامية وبقبالة على الإسلام فذلك هو اطلاعهم بين القوم على أسرار  
الأريام والأيسار وما يدرمها أحياناً من الشئ والتليس ، وأن القوم هم  
مخافة عن الرحمة والزرعة الروحية باعدت بينهم وبين حلائق  
عبد مناف حد النبي عليه السلام - من انقطعة الأولى بين الأحرار  
لقريش . وحيقاً بأمثال هؤلاء ألا يألمهم الصعناء

ولم يعم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء . وقيل إنه كان عبد عتقة من عقائلهم . وقيل إنه كان عبد يتاء لأبي جهل . وقيل إنه كان عبد أمة من خلف وبعض ولده . واتفقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو الذى استقده من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم إياه للحوبة فى الاسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل سبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن يعص الصفقة على لصديق بعد شرائه فقل له : لو آيت إلا وقبة سعاك ! فقال له الصديق لو آيتم إلا مائة لا شترته ! ! ويرعى بعض الرواة أن لصديق استبدله بعلام له حلة من عبده ، وهى رواية بشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستفد به رجلاً غيره ، وأدى من ذلك وأشه بخلائق الصديق رضى الله عنه أنه اشتراه بأمر النبى عليه السلام . وأنه عليه السلام عرض عليه لشركة به لحقق عنه عبء بفقته وبقعة المستضعفين من أمثاله . فقال له لقد أعفقتك يا رسول الله . وعمن بعد ذلك حارباً له ثم حارباً لنبى ومزدناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واسراح بلال بعد عتقه من إيداء السادة للعبيد وبكاهم يشرح ولا استراح غيره من إيداء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم لعصية ولا لحوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقون المسلمين بكل ما استطاعوا من عت وفساة ، واشتدوا فى ذلك حتى هوى بقتل النبى عليه السلام وجمعوا كمة القبائل على هذه الية ليعرفوا دمه الركى ييبها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعدوتها . فأشقى النبى الكريم على صحبه وأذن لهم فى أخجره قله . وكان بلال من هاجر إلى



المدينة على إيثارمه للقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحب  
الصديق إلى المدينة كانت «أودأ أرض الله من الحمى» ولكنها أرحم بهم  
من جيرة المشركين في مكة . وزن لصديق وعامر بن فهيرة وبلال في بيت  
واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى - ولعلها الملازياً كما رجحنا في غير هذا  
الكتاب - فكان بلال إذا تركته الحمى اصطجع بفناء ليت لم دفع  
عقيرته يترجم بصوته الجمهورى قاتلاً :

ألا ليت شعري هل أبين ليلة  
بفخ وحولي إختصر وجليل  
وهل أردن يوماً مياها بجنة

وهل يدون لي شامة وطفيل  
وهي مواضع ومنات محكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد  
عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد  
لقي عند تلك المواطن والمنازل قسوة في جاهليته وتعديباً في إسلامه وخطراً  
على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصا الأول وعاش فيها مع الإيمان  
الأول ، فهي حبيبة إليه أثيرة لديه ، وإن لقي الخفاوة والسلامة في الهجرة  
منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبي والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار  
بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه  
حفظ الأذان الأول فكان لبلال حفظ السق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ  
التقدم على سائر المؤذنين في حصرة النبي حتى قبض عليه السلام ، وميز  
بالتقدم عليهم لتقدمه في الإسلام ولجهازة صوته وحسن أدائه ، وإن كان  
تقدمه في الإسلام هو رجع المريتين التي استحق بها التعظيم والتكريم

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم البهي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يارسول الله . فإذا خرج رسول الله مرآه بلال ابتداء في الإقامة .

وقبل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدهش الشمس ويؤخر الإقامة قليلا . أو ربما أخرها قليلا ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت . وربما ترمم بعض الشعر وهو مساعد للأذان رثاء لحاله وطلباً للتوبة والرحمة من الله . ومن ذلك أنه سُمع وهو يقول

ما لبلال ثكلته أمه      وانزل من نضح دم جينه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العترة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العترة إحدى عترات ثلاث أهداها نجاشي الحبشة إلى النبي عليه السلام ، فأسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العترة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقبل إنه كان يمشي بها بين يدي الصديق في خلافته فلم يجعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمرو وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العترة التي احتفظ بها الولاة يمشي بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آحى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فأحى بين بلال ونخالد أبي ربيعة الخثعمي ، وقبل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيدة بن الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الأسماء ، والأول هو الأرجح لقاء الصلة بين بلال وأبي ربيعة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه  
هل لأصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعلم ، فكان يقول له :  
يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عشي  
فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء ، وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من  
المال عنده وقال له : انظر حتى تريحني منه . فيرى بلال القدوة في سيده  
ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، وبظل على هذه القدوة حتى فارق  
الحياة .

وقد أرى النبي عليه السلام أنه جمع دوف نعلي بلال بين يديه في  
الحنة ، فسأله بعد الصلاة . يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته  
عندك في الإسلام منعه ، فأبى ، فبعت بيعة دوف نعلين بين يدي في  
الحنة . فلم يذكر بلال رده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا  
أمانته وتسليمه بل قال : « ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي  
من أني لا تطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت  
بذلك الصلوة ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاه النبي هذا الصديق المؤمن الأمين صطفاه المرفى الكبير  
للرحل تشر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يشر فيه الصنيع الجميل ،  
ويُحب للطف محضه كما يحب لخلوص طويته وفصائله نفسه ، وقد كان  
كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب  
والسهم والإقامة والسفر ، وبكفته عليه السلام لم يكن يتخذ حارساً يحميه  
كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته  
وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق  
مودته ووفائه ، وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد

وحيث لا يريد ، فإذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تطليه  
بشباب الوشي وانتهى لا يسأله ذلك ، وإذا تهيأوا لقتال صرب به قلة من  
أدم يرفق موقعة منها وحمل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى  
الأمر منه ، فلم يفرقها موقف فضلك ولا موقف خطر ، ولم يقص يوم إلا  
جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومحاسن العظة والحدث ، ما لم يكن في  
غيبة قصيرة لشأن من شئون الدين الذي لم يكن له شأن سواه

ولما فتحت مكة أمره لسي عيه السلام أن يقيم الأذان على ظهر  
الكعبة فأقامه والمشركون وحرم يعبطون آماءهم لأهم لم يشهدوا ذلك  
اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه به ، ودخل النبي الكعبة فكل في صحته ثلاثة  
هم عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ابن النبي بالثبني ،  
وبلال

ومارن بصحب النبي محمداً حتى قصر عليه اسلام ، فأقام الأذان  
بعد وفاته يوماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإبقاء ، لأنه  
كان إذا قال في الأذان : «شهد أن محمداً رسول الله» بكى وبكى معه  
سامعوه ، فلم يظف به المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعد  
لا يصحبه ولا يراه ، وثر الاعتزاز على فرط حبه لمكة والمدينة ، وأثر  
الجهد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة السنين ، وانفقت أرجح  
الأقوال على أنه استعفى بصدق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى  
الشام مع المجاهدين فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك  
لأنعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يرزعه  
ويعيش من علتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للحليفة

الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدى لحاسة  
خالد بن مجلس الحكم بين يدي أبي صيدة

وُدركته الوفاة في نحو السبعين - لأنه كان ترب الصديق على أرجح  
الأقوال - وقيل إنه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة  
أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبي  
وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعون إلى  
جانبه وتصبح صبيحة الولد ! واحزناته . فيجيبها في كل مرة بل واهرحاه .  
غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق عذفن عند الباب الصغير ، وقبره رضي الله عنه  
معروف يزاور .

وليس أدل عن قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد  
الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن  
لأدان تلك السنين الطوال بكى عمرو وبكى معه الشيوخ الأحلاء حتى  
انخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التي لا تضطرب في مقام  
المروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمي يطلق من حنجرة من  
اللحم والدم لما احتلجوا تلك الخلجة ولأنولاهم ماتولاهم يومئذ من  
الوجد والرحبة ، ولكنهم أنصتوا لوصي الغيب حين صهقوا إليه ، وقام في  
أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه  
معه آونة من الزمان . فهم إذن في عليين أو قريب من عليين ، وهم إذن  
على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في  
جواره ، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي

فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عدم الأرواح  
وفاق السماء .

رحم الله بلالا إنه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها . وقد  
رفعهم في ذلك اليوم إلى لأفق الأعلى ، إلى الخصرة التي يرتجف بها  
الأجساد لأنها غريبة في ذلك الحوار

• • •

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال  
حيث كان . فمن سيرة بلال الوجيزة نعم أنه كان يأوي إلى كفالة النبي في  
حياته البيئية كما كان يأوي إليه في حياته الدنيوية . وأن أحداً من الصحابة  
لم يكن يذكرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤدبه وصاحبه  
ووليّه صوال حياته حيث يروونه أو حيث يستمعون إليه ، وقد شغل النبي  
تمعيشته في بيته كما شغل بعثته وورقه وتفريجه دينه ، ففي روايات مختلفة أنه  
تروح بوصية من عليه السلام ، وفي إحدى هذه الروايات « إن بي أبي  
الكبير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : روح أحتنا فلانا . فقال لهم .  
أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله أنكح أحتنا  
فلانا فقال لهم أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم أين أنتم  
عن بلال ؟ أين أنتم عنه رحل من أهل الجنة فأنكحوه »

واظهار أنه تروح خير مرة وأنه مات بشير عقب ، فقد جاء في رواية  
فتادة أنه تروح أعرايه من بني رهرة ، وجاء في رواية أخرى أن به زوجة  
تدعى هداً الحولانية ، وهي من حولان اليمن لامن حولان الشام ، لأنها  
كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

دکره اس إسحاق فیمین حضر بشر فقال . ویلال مولی ائی مکر  
مولد من مولدی ہی جمع شتره أبوبکر من أمیه بن خلف وهو یلال بن  
ریاح لاعقب له .

نعم ولكنه أعقب المیراث الذی یخص بالأداء فی کل مکان . فلا  
یتساه من یسمع الأداء ویرجع به إلى أون من نادى به قبل أحيال  
وأحيال





. إسلام بـلال

كل إيمان فهو شئ يتجاوز الفرد الواحد ولا يمحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذي يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في ربه أو بعد ربه ، وليس بإيمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يصحى بالمصلحة في سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها وقد يصحى الإنسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينشأ أن الإيمان شئ أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الإنسان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد بالإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة

ويكفى أن يصحى الناس بمصالحهم في سبيل إيمانهم ولو أن بعض الأحيان لتقرر هذه الحقيقة من وراء الحدس والأخلاق .

لأنهم أن يسي الرجل إيمانه في سبيل مصلحته ففوق إن مصلحة عزيزة عليه وإن الإيمان ضعيف في نفسه .

ولكن لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عرت أو هانت هي شئ غير الإيمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فيسبى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالمعيب ، وهو سابق لحصول مصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس - كأنواع كارل ماركس - يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان  
والدعاب والآداب وكل ما يحبك بفسير الإنسان إن هي إلا صورة من  
حياته المادية التي لا يموت بعدها ولا يحل للروح فيها ، ومنهم مع  
ذلك من يدخل السجن ويتعرض للتعذيب ويجازف بالحياة ويفقدها في سبيل  
إيمانه بمعتقده وإنكاره معتقد الآخرين . . . وليس بالمعقول أن يفقد  
الإنسان الحياة لأنه يطعم إلى الطعام الهنيئ والعيش الرغيد ، وليس  
بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من ينعم بالطعام الهنيئ  
والعيش الرغيد وهو تحت التربة فإذا هو أقدم على فقد الحياة فمسألة  
عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بإزاء مصلحة  
صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه يراه قوة تمضي به حيث شاءت ولا  
يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة  
ووضع الأرقام بإزاء الأرقام .

وقد شوهلت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تخصي ، ولكن م  
تشاهد قط عقيدة تقبل التصحية ، حياة وهي حلوة من إيمان بحق وثورة  
على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التصحية بالحياة وهي قائمة على  
منفعة تخص صاحبها ولا تتحوّره إلى الآخرين ، ومتى تجاوزت المنفعة  
فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين - فهي تد  
مسألة حق سابق لوجود المانع وسابق لوجود الأفراد

فلا إيمان أبداً هر شعور بالحق وليس شعور بالمصلحة على وجه من  
الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودة والإيمان غير موجود ولكنهما منى وجدنا معاً فيها شيئان وليس  
شيء واحد ويفلان أبداً شيئ من معدن مختلفين وإن تلاقى في  
الطريق إلى مدى بعيد.

وإن إسلام بلال رضي الله عنه من الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه  
الحقيقة في الأدهان.

وقد عينا بأن نين مزايا الإسلام في معاملة الأرقاء. ولكننا عينا مع  
ذلك بأن نين حقيقة أخرى لابد من تبيينها في هذا المقام، وهي أن  
المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الأرقاء في الإسلام، وإنما هو  
« الحق » والشعور بحال هذا حق أو وجوب تصييه على الباطل، ولولتي  
الأرقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين بلعبيد والإماء  
كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النجبة الأبرار: خديجة وأبو بكر  
وعلى وعمار وآمه سمية وصهيب وبلال والمقداد.

قال رواية صدر الإسلام أم أبو بكر لنعه الله بقوته وكذلك  
من كان هم قوم يحمونهم. وما سائرهم فاعدهم المشركون قالسومهم  
أذراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم يسأل إلا وقد راناهم  
على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام إلا بلالا فإنه هابت  
عنه نفسه في ثلث وهاب على قومه فأعطوه الوعد فجعلوا يطوفون  
به في شعاب مكة وهو يقول: أحد، أحد. ولا يريد.

وحاء في طبقت ابن سعد بأستاده ما فحواه: إنه كان من  
المستضعفين من المؤمنين، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما  
عظاهم قط كلمة مما يريدون، وكان الذي يعده أمية بن حنف...  
وكانوا إذا اشتدوا عليه في العذاب قال أحد، أحد فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لساني لا يحسه . وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء ويطع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول أحد أحد فأق عليه أبو بكر مسألهم علام تعدبون هذا الانسان ! واشراه بسمع أواق واعتقه .

ومما جاء في الطبقات أن أبا جهل حدهم بالمشي فجعل يشم سمية ويرفث ثم طعها فقتلها فهي أوب شهيد في الإسلام . وهانت على بلال نفسه في الله حتى صوره فجعلوا في عنقه حبالاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أحشائ مكة فلم يردهم في كمنته التي كان يرددها ولا يمل من يرددها : أحد ، أحد .

وكانوا يصربونه ويلقونه على الرماح الكاوية في وفدة المهجير ثم يصعبون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد .

• • •

هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يعزل به الإسلام إلى الوعود - فصلا عن تحقيق الوعود في معاملة المستضعفين من العبيد والامراء ، لأن أحكام الإسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين

وإن آخر طي يحطر على نال المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلة أنه يرى رجلا وارث بين سوء المعاملة في جاهلية وحسن المعاملة في الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها . لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الإسلام شيئاً يذكر إلى جانب ذلك لعذاب الأليم الذي كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لا ينظر حتى يسلم سادته فيقطع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لا يضر حتى يمنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الجديد بين يهر من المعلولين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يحظر لعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فأمر به العبيد . ولا يحظر له أن هذه نسوية تغصب الأحرار فتحبيهم لأبنة أن يدخلوه . وقد دخله الأحرار كما دخله العبيد في مبدأ التشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبال وصهب وأمثالها مصحة في لا يحد بذلك الدين لأنه سوى بينهم وبين أبي بكر وحمره وعثمان وعلى والماروق فامصلحة هؤلاء في النزول بأفكارهم إلى حيث يساوون بعيدهم المستضعفين وهم أولئك دور الحمية لتي شمع برؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبل لا يصارعهم في العزة والجاه |

فمن الحق وسكينته في لصوص وسحت في تعين لايمان بكل عقيدة جديدة وكل مصحة إنسانية فوق مصالح لأفراد . وإما يوحد الإيمان حين يوحد للنفس حق محبوبات وباطل مكروه . ولو صاعت في سبل حب الحق وكراهة باطل مصلحة عاجله أو آجلة أو ضاعف الحياة بغير أمل في الحراء

فلا العبيد آمنوا لأن لإسلام يسوي بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار

تمو لأن لاسلام يسوى بينهم وبين العبد . لأن قصور هذه النسوية  
أنها مصالحة لفريق من اساس . ومماراة الإيمان وحصلحه شيئين مختلفين  
ومعدين متباينين . فالمصالحة شيء ونحوية حياة لفرد وعد نحوية حصّة  
قريبة من حياته . أما الإيمان فهو 'بد' شئ يتجاوز لفرد الواحد وقد  
يبدى في سبيله المصالحة والحياة

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأدبار الكتابية أدس يؤمنون  
بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب يفرق بين أقدرهم وأقدر ساداتهم في  
الحياة وبعد المات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرها من أرباب الدهية  
وكان لا يرحو بصفة منها ولا تسو به بين ساداته المتجربين عليه وعلى  
سائر الصغفاء ؟

فلما ساء طنه هذه الأشثات من الأرباب كان حس طنه بالأه  
« الأحد » هو الذى سوا طنه بدين جاهلية ، وكانت وحداية الله لعى  
الأعلى هى التى تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعبه عن شدته وهو ينطق  
من أم العذاب بين يدى سادته القساة .

فكانت الوحدةية هى الكلمة الواحدة التى خص بها فصل لذين  
الحديد على الذين الملهجور . وقد ألهم هذا لتحبص انصايق الروح  
إهام الإيمان الذى يهدى العقل إلى موقع الهدى من أوجر طريق ، فلو أنه  
كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » حار أن يقال أن في الآهة  
الرئيسة من يتصف بالرحمة . أو حار أن يقال إن الرحمة بدرت إليه في  
نلك اللحظة لأنه يشكى القسوة والعذاب ولكنه لما ردد كلمة

الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدى في الصفة الوحيدة التي لا بدعيا المدعون لأرباب الجاهلية . كما هدى في لصفة الوحيدة التي تجعل الايمان يماناً بالخلق ولا تجعله انظاراً لرحمة أو عسر أو حرمان .

ولا تريد أن تقول إن الايمان ومصلحة لا يجتمعان . ولا أن تقول إن المؤمن لا يخطر له مصلحة بحال وإياها لا شأن لها التة في تحول العقائد وعبادات . فإن المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد . وقد تنه لأذهان إلى الإصغاء الذي يتبعه الأرباب والتصديق وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس . فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير انعم .

ولكن الذي نقويه إن المصلحة غير الايمان وإياها قد يهترقان كما يتمقان . وبو كانت المصلحة هي الايمان لو حدثت المصلحة ولم تكن هنالك حاجة إلى وجود إيمان على الاطلاق . كفى أن يسعى الانسان إلى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلاً إليها ، وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها في الشعور الذي يجب إليه الموت . فأما وقد وجد الايمان في كل رس من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جراء . فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة في إيمانه . فإنه يضم إلى مصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالايان

كلا ليست صورة بلال عبي رماب الطحاء الموقدة في قبط لصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من نفسه السادة لأن الخلاص هو كل ما بهيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد الأحد » بصورة الرجل الذي



دخل الدين الحديد وهو يجهل القاري الصحيح بين الدينين . ولا يعرف  
الدين الحديدي فصلا إلا الرحمة بالعبيد في الأرض أو في السماء .

لقد كادوا يقتلوه وهو لا يحسبهم إلى تعظيم آلهم ولا يثر الكوب .  
ولعلمهم لم يبق عبه إلا لشحهم شمه أن يصيح عليهم إن قتلوه . ولعل  
يا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح لبيع ولا للمعانة .  
ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيلاً لأنهم رجال عاميون يباعون  
ويشترىون . ولكهم لاشك كبراً قاتله آخر الأمر إن يشاء منه ولم يحدوا  
من المشركين من يشره وهو صائغ من دين الخاهية . فلم يكن إسلامه  
سبل رفق ولا تخفيفاً من عاء . بل كان سبل عذاب ومخاطرة  
بالراحة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبوا ما ساءهم المشركون أن  
يسو به . ومنهم عمار بن ياسر - لنعلم أنه كان عذاباً يعوق طاقة  
الإنسان .

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه . ولكنه ضاق - في صباه  
بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين . وقد شهد  
الغاري في عهد النبي وعهود الخلفاء . وكان عليه السلام يقول : « إن  
عماراً مليء إيماناً إلى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم  
أن يقتلوا بأبي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار وهو أيضاً لم يخلده إلى

لإيمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة  
والنعمة مع معاوية وينضوي إلى جانب على لموت تحت يده في  
صفين ، وما كان على نور انتصر بمعدي عليه مالا ولا بمطعمه في عيش  
أرعد من عيشه ، وهو عيش الكفاف

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب  
عقريه لإيمان لأن إيمانه كان ذلك الإيمان الخالص الذي يوصف بأنه  
الإيمان حياً للإيمان لا حياً عما وراءه من رضى أو حرء . وآية المؤمنين  
الموهوب أنه لا يرضى العيش بعير العقيدة ولا يطيب له اللقاء وهو مخالف  
لما يعتقد . فينس على لموت كراهة للقاء في ديار لا تواتيه على اعتقده  
وليس يقبل على لموت طلباً للجنة كما يقال . فإن من المؤمنين بالعقائد  
لمادية كما أسلفنا من موت في سبيلها ولا أمل به في حياة بعد الحياة .  
وإن الجنة الحسية إلى كل إنسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل  
يحاهد ورجل لا يحاهد أن هذا يكره الحمة التي يحبها دث . وإنما الفرق  
بيهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة . وهي قد كانت في عمار على أقوى  
ما تكون في إنسان

ومع هذا تحف الموت على نفس عمار فسمى في لقاءه عشرات المرات  
منذ غرا مع انشئ إلى أن ينف على التسع ومات تحت لواء على معركة  
صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذي صبر عليه « بلال »  
وظل صابراً عليه بعير أمل في الخلاص القريب ،

وكل طمع في حسن معاملة يزول ويظلم في مثل ذلك العذاب الذي  
صاقت به طاقة عمار ،

نعم يزول ويطل لولا إيمان جهن معه لموت ويهون معه العذاب ،  
ويهون معه سوء المعاملة وحسبها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار إلى دخول الدين الجديد ،  
ولكن لدى يفهم من ذلك - أو ينبغي أن يفهم منه - أن المصلحة لم  
تكن علة بين العبيد وبين الأصغاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار  
كانت لهم مصالح تمنعهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل في صدقها  
وبطلان ما هم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً  
عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي  
أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت مصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت  
العقيدة على الإطلاق ، ولوجدت المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير  
اعتقاد على الإطلاق في شيء من الأشياء .

لقد كانت في نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص ، فصدق النبي  
الكرم لأنه كان أهلاً لولائه وإخلاصه ، وكان خبيراً أن يطمئن إليه  
ويشعر بالسكينة في الإصغاء إلى قوله والافتداء بعمله

ومع رجلا ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو في  
لدواية العليا من بني هاشم أو في انداؤمة العليا من قبائل العرب  
جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل  
الحبيب السبب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الأول على صدق  
لعقيدة . ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحبيب السبب  
لما أسرع بلال إلى تصديقه والجروح إليه

فأما وقد جنح إليه وآس بدعوته فالمسألة بعد ذلك لم تكون مسألة  
موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنتح إليه ومزجه بقله وصميره . فصار في أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان . . . وقد صبر على بلاء الحسد لأنه مستريح القلب والصمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو إليه الأحلام ويتعلق به الرحاء فيبلغ من تعظيمه أنه كان نداً لأعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والعاروق . بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوم أن أما سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورعظاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب فأذن لها حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلة القوم . وعضب أبو سفيان وقال لأصحابه لم أركا ليوم قط . يآذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابنا ؟ وكان سهيل يحكم منه وأدى إلى الإصناف فقال لهم أيها القوم ! إن الله أرى الذي في وحوهكم . إن كنتم عضاباً فاعضوا على أنفسكم دعى القوم . - إلى الإسلام ودعيت فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دعو يوم القيامة وتركتم الله . »

• • •

جمال هذا الأدب هو الذي يهون في سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذي يوحى العقيدة إلى النفس فترفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الأحرار وأصغروا

إليه وصدقوه . وقد تمت أده العقيدة حين هم الحب والإصغاء  
والنصيحة . فما يرال بنو الإنسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان ليس  
بهم ويزن الفداء إلا قضية يحبها ودع يصدقونه وما يكونون يوماً  
أخرج إلى الإيمان منهم يوم تفر عليهم القضية التي تحب ولداعى الذي  
يصدق فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها عيسى أمامهم محبص من  
أحدى غايات ثلاث : ماء : أوحياة كحياة الحيوان : أو إيمان بوجود  
حيث كان .



صفات بلال

كان بلال رجلاً على سواء العطرة

وآية ذلك أنه كان كما يسعى أن يكون كل رجل قوى يصنع من بي جلده وفي مثل شأنه . يمر بالحوادث التي مر بها ويمارس التحارب التي مارسها

وقد تقدم في صفات الموالى الأفرقيين أنهم يقيمون الإساءة على لسانهم ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بني جلده وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ في قسوته ولا بالمكابر في عناده إنما كان قد برزته عذراً أو سبباً ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب

قال ابن الرومي :

إذا الأرض أدت ريع ما أنت دارع

من البلد فيها فهي ناهيك من أرض

ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها

بل العيب أن تدان دنيا فلا تفصي

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون ثمر الإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث يطلبونه ، فإذا بهم ينخلطونه صغائهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكرون صحبهم . ومن ذلك أن مشركاً أراد أن يسوم فيه سديته فقبل أن يهرتها خيره وحرم ثمرته فقال له منصفية . وما تصنع به؟ إنه



حسب . . . وانه . . . وانه ا إلى آخر ما وصفت به سمعته على سوء المعاملة  
وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الدين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب  
صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن حسد وكنود ، وإنما هو بشرة  
سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أهلهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية ثم يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان  
إيمانه القوى بالله ، وإخلاصه اليك لرسول الله ، هما اللتان لتي ترتقي  
إليها محاسن بني حنيفة ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاؤه  
تابع لمنبوع أو ولاؤه معجب عن يستحق الإعجاب

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا  
والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرحق في دنياه ولا بعد موته  
إلا أن يأوى إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت مرآة تشر وتعلمها السكة في قوس حياتها  
متصيح : واحزنانه .

وكان هو بجيبها في سكرات الموت : بل وافرحته ! غداً نلقى  
الأخوة . غداً نلقى الأخوة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا  
الكوكب العظيم إلا وهي في حاسبها علاقة محمد رسول الله ومحمد  
سيده ومولاه .

وتلك الروحة الوهية النارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت  
لا تحليه من مناعة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين  
الروحاني وفي كل صفة بين بساطين ، فكان يقل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن نمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومسايط الحياة والكرامة عنده :  
وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه فاستعظمت يوماً ما بحديثها  
به عن رسول الله في ذ به ينور ويعصب ويهم بالبطش بها ثم يدع سرب  
محققاً مقطوعاً حتى يدعاه الرسول ، فيمضج ما به من تعير حار ويعهم سره  
فيشتمق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لروجه مظها في صدقه  
ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة «ما حدثت عني بلال لقد  
صديق ، بلال لا يكذب ، فلا تعصني بلالاً» .

فإذا المولى الأمين هاني قدير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم  
ولا يشكون في رويته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين في شئون الصلاة  
والصيام .

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس  
وتشج لحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد  
البحور والإفطار يقولون : إنا لرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما نرى  
الشمس ذهبت كلها بعد ، فإذا همعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه  
ترك رسول الله يشجر فالتقوا ما قال بلال ، وليس للشئ في ضوء النهار  
مكان .

وقد لزم بلالاً عادة الصدق في كل كلام يبلغه المسلمين عن النبي  
أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشئون وخاصها ، فها رحاه أخوه في  
الإسلام أبو رويحة أن يسمره في رواجه عند قوم من أهل اليمن  
لم يرد على أن قال : «أنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة» وهو امرؤ

سورة في الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن  
تدعوا فدعوا . . . »

فزوجوه فكان حسبهم عده أن يقل الوساطة ولا يرده أو سموه عليهم  
أوصافه !

وقد كان من ولاته لأبي رويحه هذا أن صم ديوان عطائه إليه حين  
خرج إلى الشام . فلما دون الماروق دواوين الصحابة سأله : إن من نجعل  
ديوانك بابلان ؟ قال : إلى أبي رويحه ، لا فارقه أبداً بالأخوة لني  
كان رسول الله عقد بيته ربيى .

وذلك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل هجرته إلى المدينة كما آخى بين  
غيرهما من صحابته لأوفياء . فكانت أخوة العمر عده من فصل الولاء  
لرسول الله . وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن  
يحمه ويرعاه .

• • •

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الحصال التي تتجمع كلها في  
صفة الأمانة - وهو هو قائد الرحا لخير عنقب النفوس فأقامه في  
موضع الثقة واتسبه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ،  
واستصحبه في غزوه وحجه وحله وبرحله ، وأسلمه العترة بحمصها بين يديه  
أنام العبد والاستسقاء ، ولم يعرف أحد من الصحابة لأمره عليه السلام كما  
لأمره هذا المؤد الذي بقي مع الصلاة وهذا الأمين لدى يحفظ له المال  
والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات  
لهجير في رحلات الصيف . وربما تقدمه فركب ناقته ( القصواء ) التي  
فما كان يركبها سواء عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

عليان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاة ، وبلال  
ودامت هذه الصلحة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه  
فكان بلال هو الذي ذكر واحب الحنان المذكور في ذلك الموقف الأليم ،  
فحمل القربة ودار حول ذلك لثرى الشريف بينه والماء

\* \* \*

وعى هذا الحنان في صوته لمولاة العظم كان لرحل صمير يعرف  
الإصرار على لرأى كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونذر من رديلة  
وربما كان الإصرار شيء من عماد بني حلدته أساء الحسنة وأساء  
اسلالة السوداء . لا أن العماد حصلت ذات لوبين أحدهما بحمد ويقيد  
وثانيهما يذم وبصير .

فانعاد أحد لوبيه ثبات على انصواب والعقيدة ، وفي بونه الآخر ثبات  
على الخطأ واهوى . ولم يعرف من العماد في تاريخ بلال إلا أجمل اللوبين  
وأشبهها بقوة الأسر وخلافق الأمناء

من دنت عمده لمشركين حين ساموه لعذاب يفتوه عن دينه  
ويكرهوه على سب نبيه كما تقدم في وصف إسلامه ، ومنه إصراره على  
ترك الأدب لغيره حين وقرى نفسه أن أدانه بعد رسول الله بعض في  
الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام  
حين سأله خليعة اللقاء فقال له في رواية مشهورة : « إن كنت أعتقني  
بسمك فأحبسني ، وإن كنت أعتقني لله عز وجل فقدرني أذهب إلى الله  
عز وجل » وأبى إلا أن يمضي حيث أراد .

ولاشك أن الرحمة بالأعداء أمر لا يسطر من رحل قبل عهده وعهد  
قومه وآبائه وأجداده بمسورة لصعاب وعدب المؤمنين ، هي رحمة رحل

كفهد لم احسبوا اليه وساموه حلق منهم لا عر به فيه أما الحق الذي يستعرب منه حقاً فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمة خاصة لمن فرص في الإساءة إليه .

وهذا لا نستغرب ما روى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد وقعة بدر مع المشركين ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه . فلما افتتح النبي حصن القموص بخيبر جاء له بصيغة بنت صاحب الحصن وقرية لما دود سن . فأرسلها إليه اسلام مع بلال إلى رحله فربها بلال على القتلى من قومها فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت على وجهها وعلم النبي بما صنع بها له عاتياً أرعت منث الرحمة يا بلال حين تمر بحارية حديثة السر على لقتي ؟ فكأن عذر بلال الذي اعتذر به جوابه يا رسول الله ما ظلمت أنك تكره ذلك . وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما في وقعة بدر فقد كان عشرة أوصح وأسلم من عذره في وقعة خيبر

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف بقودهم كما يقاد الأسرى ، وقد كان أشد الناس إيذاء للمسلمين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصياً من ذلك الإيذاء اللثيم لما وقعت عنه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله رأس الكهر أمية بن خلف لا يحوت إن بما ولم يش عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال بهم يفتنه ويصيح . لا يحوت إن بما لا يحوت إن بما حتى اجتمع حوهم خلق كثير ، وصرب أحدهم ابن أمية فوق صريعاً فإذا بأمية يصيح من الفرع صبيحة لم يسمع بمثلا . قال

عدد الرحمن بن عوف : اسع نفسك ولا تحاء بك ا فوالله ما أعنى عليك شيئاً ، ولكن المقاتلين هروهما بأسيا فهم قل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يريد في وضوح العذر لبلال من هذه القصة أن أمة هذا كان من أحق الناس بالبعص وقلة الرحمة لأنه كان يعدد المستضعفين تعذب الحمال اللثم لا تعذب الساحط العبور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يمرض حياته بمعامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين ، فما هو إلا أن سمع سدير البسي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائضه وراح يسأل عن المكان الذي توعدده بالقتل فيه ، فصرح قومه بالنعوذ عن القتال وأنه لا يخرج حرب المسلمين في غروتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعد ، وه يتحرك للمحروح حتى جاءه أبو جهل بن الملاء بحمرة يبحره ه ، وقال له : تممر يا هذا فأنما أنت من النساء

ولما نشب المعركة سدر كان هو واه في طبيعة الساكصين عن لفتان ، ثم قتل انه فكنت صيحت عليه صيحة فرع لا تسمع في ميدان ، فاما كان تعديه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره - ولم يكن من بدد العقيدة التي يغار عليها لرحل الشجاع وبلقى الموت هو وبناؤه من أحلها غير وكل ولا هيأت وليس حتى من مثل هذا بمصاء المنتقم في ساعة القصاص ، وكفى لبلال عدراً في هجة غصه عليه أنه يعلم سدير البسي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنا بعد قتله فقال :

هنيئاً رادك الرحمن حياً لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفي غير هذه الهية التي تدرك أحلم الناس في موطن النعمة وحومة

حرب لم تكن شدة بلال غير حميه الرجل لمطري التي تدوم منه القسوه وهو لا يعيها . وكان في حمله أحواله مثلاً بحق الوديع والطيبه الرصيه وحلاوة النفس والانضاع . فكان يحججه أن يسمح الناس بمحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أحلاء الصحابة لشانه وصبره . فبطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً \* وكانت قلة دعوه بصحة من صحاح تلك لطيفه ارضيه . فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يحفلون من أحاديث لبي عيه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائسه والواقفين بصق ما يرويه . ولم يرد في رحله عن النبي على ما بعثه من إقامة الصلاة ولأداء أو مواعيد الإفطار والصيام .

• • •

وكان بلال بن قومه في حلقين أحريين يعرفان في بعضهم، قدماء أو محدثين . وهما فرسة النظر وحب الراحة أو انضيق بالجهد الشديد أرسله النبي عيه السلام مع رعية اسحقى ليرد له اسه الذي أسره المسلمون . فلم يفته وهو يقص بآء على النبي أن يقول : والله ما رأيت واحداً منها مستعزاً إلى صاحبه ! فقال النبي ! ذاك حماء الأعراب ووكل إليه النبي وهو مقل إلى وادي القرى بعد وضعه حير أن يوقفه لصلاة الصبح وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس ثم صبى عليه السلام عن معه وإن أحدهم ليست العرق عن حبيبه من حر ذلك اليوم . فلما سمى قال : كانت أنصا بيد الله فلو شاء قضىها وكان أو بها ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال هادر بلال معتدراً وهو يقول : بآء وأمي فبص بصي الذي قضى بصلك ! فسم عليه لسلام .

وإنما تدب هذه السهوه وإن تكرر على إيشار اراحة لأمر  
علت كل حذر من تهويت صلاة الفجر حاصرة على النسي وصحبه .  
وهو حذر كان ولاشك في نفس بلال شديد بل أشد من الشديد

• • • • •

وآخر ما يروى من أعمال بلال وفسته مع خالد بن الوليد حين أمر  
الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء فقد مكث  
خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال  
المسلمين ؟ وهو معرض لا يحب فولي إلى بلال ثم تناول عمامته  
ونقصها وعقله بها وخالد لا يمنعه وسأله : ما تقول ؟ من مالك أم من  
إصانة ؟ فعند ذلك أحاب خالد : بل من مالي ، فأطلقه وعممه بيده ،  
وهو يقول : اسمع ونطيع لولاتنا ونصحم ونخدم مولينا .

ذلك آخر ما يروى من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع  
أعماله كلها وحلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة  
الحريثة التي لا تنسى التحميم والتعليم إلا في سبيل طاعة أكبر منها  
وأوجب فلم يكن أسرع منه من شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر  
الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بصحيحه وتعظيمه حين  
فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذي يطاع ولأمر الذي تحب له الطاعة وهي  
طاعة القوى الشريف ، ولست بطاعة المسحر الضعيف ، وقد عصي  
ساداته والموب جاثم على صدره وهرض الطاعة على من يهابه العصاة  
فكان سيد المطيعين ، ولا يشرف الإنسان إن لم يكن سيد الأمور إلا أن  
يكون سيد المطيعين



الآذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوة تكون من معدن الصلاة وتم  
على صوت من أصوات العيب المحبب بالأسرار دعوة حية كأنها تجد  
الإصغاء والتلبية من عام الحياة بأسرها ، وكأنها تدنو الإنسان في الصلاة  
من ساعة مرها إلى ساعة ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصعائه إليها  
دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويترشح فيها خشوع مخلوق بعظمة  
الحقائق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعد من  
مواعد الصلاة « كأنها نياً حديده .  
الله أكبر الله أكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعوها المسلمون إلى لصلاة ، وتلك  
هي الدعوة حية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا يوميئ إليها ، وتلك هي  
الحقيقة السليطة عاية السطوة ، لعجبية عتبة العجب ، لأنها أصح  
الحقائق عن التكرار في الأبد لأبدي وأحوج الحقائق إلى التكرار بين  
شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم في صلاة مد يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها  
عظمة الله وهي له باب الصلوات .

وتفرح بها مدّة الليل فكأنها صخرة من ظواهر الطبيعة الحية تنبها  
الأسماع والأرواح ، ويصمت لها الطير والشجر ، ويخف ها الماء والهواء ،  
وتبرز الدنيا كلها برور التأمل والاستجابة مد تسمع هتفة الداعي لدى  
يهتف بها « إنه الصلاة بخير من النوم »

فتتحرك كلها إلى حركة بعد شدة أو عجز ، وتقبل كلها إن للحركة  
صلاة حمية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم

وإد ودع بها هانف صبيء النهار وسقف بها حصيا الليل فهو ودع  
متجاوب الأصداء ، كأنه ترخاها تهتف به الأعباء أو تهمس به في جنح  
المساء . وكأنه يشير على آلاف عصمة الله فتسكن في سلام الليل  
وطلال الأسرار والأحلام .

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقف  
لأحسام بالليل وتوقف الأرواح بالنهار ، فإذا هي أشبه صياح بسكية .  
وتقرب صجيح إلى الخروج بالإنسان من ضجيج لشواغل والشهوات  
حتى على الصلاة !

حتى على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح حد الفلاح . لأن كل فلاح يعبر الإيمان هو  
الخمار كل الخمار .

• • •

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمنزل عن العقيدة  
ومعزل عن العادة والسنة المشعة ، أو كما يعرف من وقعه في بدائه الأظفار  
وبدائه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام

فهي لطيفة سمع الأذان ، ولا يفهمه ولكنها تغيره حين يحيط بنا بين  
دعوات هذه الأرض وبين صيحات النعب وصيحات ابيع والشراء  
وتؤخذ به ونحن لا ندري بم تؤخذ ، ونود بوساحله ونصعد إليه ويستجيب  
دعائه . ويمسره المفسرون لنا « يأمر الله » فكاد نفهم كلمة الأمر وكاد  
نفهم كلمة الله . ولكننا نحار في القية ونحيلها إلى الزمن لمقبل ثم  
نقصي السوات بعد السنوات من ذلك الزمن لمقبل ونحن نتعزى من حيرة

الطعونة بأشياء مبرور حائرين . وإن سميت بحيرة بأسماء بعد أسماء ووطن  
عليها عيون بعد عيون .

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة  
من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنية  
عابرة . ثم انتفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى  
إليه .

إن ألقى هذه الأصداء في كل ذاكرة هي صبيحة الأذان الأولى التي  
سمت إليها آذان الطعونة لأول مرة . ومتراب تتعدى وفي اذاكرة ثم  
تنشئ إليه من بعض ثباتها لقريبة ، فإذ المرء من طعولته الماكزة على  
مدى وثبة مستطاعه ، لو استطاع وثبة إلى خاص بعيد أو قريب

أما العرباء عن ابلاد وعن عقيدة الإسلام لما يلتمهم من شيء من  
شعائر العادة الإسلامية كما يلتمهم صوت الأذان على المدر العلية ، كيها  
تختلف التزيين والتسليم .

يقول إدورد ولپام لپس صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين  
وعاداتهم » إن أصوات الأذان أحادة جدا ولاسيما في هدفة ليل  
ويقول جبراردى برغال في كتابه سياحه بالشرق : « إننى لأول مرة  
سمعت فيها صوت المؤذن لرخم الناصع حمرى شعور من الشجوة  
لايوصف . وسألت الترجمان : ما يقول هذا الهاتف ؟

فقال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله . قلت : لماذا يقول بعد هذا ؟  
فقال : إنه يدعو اليام قائلا : يا من يتام توكل على حى الذى

لاسام . . . »

وأشأ الكنانى المتصوف « لافكاديهوهرن »

La Fendou Hearn ريان وحبره عن المؤدى لأول - أى

ملاى بر رباح ستأى بر ححبها بعد هذا الفصل فقال « إن السائح الذى بهجم لأوب مرة بين حدراب مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المناظر ، قلما تقوته حشعة القوادى بذكر الحماة الوقور لدى يبعث به دعاء المسكين إلى الصلاة وهو لاشك يستوعب فى قلبه - إذا كان قد هبأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة - كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة .

ويتبين مقاطعها وأحراءها فى نيات المؤدى الرثاء ، حيناً أرسل لبحر ضيائه المورء فى سماء مصر أو سورية وفاصح على السحوم وربه لسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصبح

سمعه نحت وهج انظهير اللامعة ، ويسمعه قبيل عباب الشمس ويعرب بناتق بأزور القرمز والمصدر ، ويسمعه عقب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الراحبة فى صيغة مردوحة من البرتقال والرمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع به نبت القبة السفحية فوق مسجد الله الذى لا يروى . ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنعيم كلمات مقنعة بالأسرار الجديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراوى برقال أحابه ولاشك تصمير كذلك التصمير

ياس تدم نوكن على السحى الذى لا ينام . . عظمات جبيلة تعيد إلى الداكرة تلك الآيات التى يقشرها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لانا حده مية ولا يوم » . فإن كان لترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فدعله يسه أن المؤدى الأول أول من رتل الدعاء إلى الصلاة كان الخدم لمقدس الذى صطقه نبي لإسلام هذه الدعوة ،

للال بن رباح . صاحب المصريح الذي يشار إليه لسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

\* \* \*

وقد كنت بحر أثر الأذان البالغ في روع كثير من السامعين والسامعات الذين يربون ببلدنا أسوار حلال الشاء أو يربون بها في الطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصيرون إلى أسوار وقد جمعوا الأذان مرت في القاهرة والإسكندرية وربما جمعه في غيرهما من المدن الإسلامية ولكنه كان يصيحهم هذه لائلي كلاً طرق أسماعهم باللس أو النهار - ولا سيما في أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر باندسة كان حسن لصوت منطق الدعاء يرح العيرة الدينية بالعبارة لفية في أذانه . فكان يجبل إنيهم يصغرون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف العيب يطرق الأسراع في وقت رتب ، أو يترقون طائر من طوائر حجرة التي تأتي في الألوان ونكر كما يأتي كل شيء عرب

وكان من عادات مؤدبين التي شوا يعيدونها في شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول المسحور على منائر العالية في المربع الأخير من الدين فشكا بعض الدارلين بالصادق القرية من المارة ورددوا في سبيع شكواهم إلى رجال الحكومة لأسهم حسوا هذه الطبول شعيرة من شعائر لإسلام . فلما سأل عنها بعض مثقفهم وقيل هم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برحائم وقالوا : إنا لا بشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يربال يسرى إلينا في ساعة العجر كما يسرى الختم الحميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تدق فوق رؤوسنا ، وكما

نحسبها نوعاً منها شعيرة لاتدبر في ذلك علماً بها سدى في كل بلد  
يسلمى على حسب عادته . وأن المدد الكبرى تشدد بها طولاً صغيره  
تدق على الأيوب فاصحوا لما أن هدى في بلد بعض هذه الطوب  
وكانت هذه الطوب مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام  
مختلفة لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان . إما لجمع  
الحمد أو نسيه العاصين أو للتوقيع والتسليم . وكانت ملابس الدراويش  
وسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق أسده .  
فتبرع بالطول الصغيرة فربح لأنها تقدم من قرع الطول حين يحنط  
بأصوات المؤذنين ، فينقلهم وبشوه عدهم حماه لأذان الخف على  
أسماع النيام .

• • •

وقد كانت هذه الطول وشيكة في بداية الأمر أن تقوم مقام  
الأذان في دعوة المسلمين إلى الصلاة .  
ولم يكن الأذان كما سمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الإسلام في مكة  
والمدينة . وإنما كان لمسلمون طائفة قليلة تدعون إلى الصلاة جماعة  
بالد . يسبح من قريب . مما صرفت القلة إلى كعبة فكر المسلمون في  
دعاء إلى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد  
ومن حملة الروايات التي جاءت في طمات البر سعد وعيرها يفهم  
أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادى مآدى نبي عليه السلام بصلاة  
جماعة ! فيجتمع الناس . فلما صرفت القبلة إلى الكعبة تذاكر المسلمون  
لأمر مذكر بعضهم الوق وذكروا بعضهم الدفوس وذكروا بعضهم باراً نوقد  
كنار القرى . فم تفرقوا على غير رأى ومهم عبد الله بن زيد

الخزرجي فما دخل على أمه فقالوا : لا نعشت ؟ قال : لا أدوق طعاماً . إلى قد رأيت رسول الله قد أمه أمر الصلاة ، وبما قرأت أن رجلاً من عنده ثوبان أحصران وفي يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أتبعه لكي أصرب به للصلاة للجماعة الناس . فأحابه الرجل . بل أحدثت بحبركم من ذلك . تقول الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله حتى على الصلاة حتى على الملاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله وبأدى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد فعدده ثم هص فأقام الصلاة

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب إلى النبي عليه السلام فنص عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فأنت عليه ما هبل لك وحاء العارون بعد ذلك فقص على النبي ما ما يشه ذلك لما

وحرى الأمر في الدعوه إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما سمعه الآن ، وراى بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقره النبي عليه السلام ، وبنى النداء في أساس الصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضررون له يحضرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يدعون إليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . . . إلا أن الشيعة يصيرون إليه ، حتى على خير العمل « مع حتى على الصلاة حتى على الملاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلاً من أربع مرات ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يحل



ينطق الكلمات ومخارج الحروف . بلا أن الختابة يعنون الأذان بعد  
تسحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيحات .

وقد يدب بلال بن رباح للأذان من لحظة الأولى فلم يسمع لأحد  
أذان قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق في تاريخ الإسلام ، وهو شرف  
عظيم لأن محمد بن عبد الله كان يقيم المسجد الذي كان مؤدبه بلال بن  
رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالا كان يهيب الصوت إلى  
أسماع المسلمين ، وأهم كانوا يهتفون بدعوتهم بصلاة النبي بهم فيزيدهم  
هذا بحشوعاً لأسماع صوتهم فوق خشوع .

على أنت تقرأ في أنباء فتح مكة أن رهطاً من شركيين كانوا يكفرون  
بداءة ويساءلون أما واحد محمد غير هذا العدد يهتف على ظهر الكعبة ؟  
وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعطو طهر البيت الذي لم  
يصعد إليه أحد في الجاهلية فهاهم أن يروا عبداً يصعد إليه ويجهز  
بذلك الداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام ألا ترى إلى هذا العدد أين صعد ؟  
فلجأ الرجل إلى حكمة المصطر وقال دعه فإن يكن الله بكرهه  
فسيغيره »

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً  
بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان  
فقال عتاب - لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون جمع هذا فيسمع منه  
ما يعيظه . وقال الحارث بن هشام . أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعت .

ونكر أبو سفيان ما سمع وفيل في بعض الروايات أنه حميم قائلاً  
لأقبل شيئاً . ولو تكلمت لأحترت على هذه الحياء .

وهو أن يحيل هذا إنكار إلى شيء يوحد ما وجد القديس في ذكر  
أن ذلك الوصف جاء من المشركين الذين كانوا حنفاء أن يذكروا أن  
أدان يرفع في سماء مكة وهو برعت به الملائكة . - - -  
الأحبار . وهم سمعوه رقيقاً و«هيفاً» كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يصدقونه  
ولا يسترحبون إليه . وكانت بهم عنجهية لئلا في الطريق إلى المدينة  
وكان لبلال عندهم وبر معروف بمن قبل من سادب مكة في عرواته  
مع النبي عليه السلام .

فإذا ردونا بحجاب المسلمين بصوت المؤذن لأبى إلى الحشوع ثم إلى  
ذكر النبي الحبيب . وردنا كره للمشركين ياء إلى المرة ثم إلى العجبية  
ولعداء فقد بقي شيء واحد ينهض عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهره الصوت  
وإبتعاد مداه في أحوار تعضاء . ولا حاجة بنا إلى العناء في المداينة بين  
حشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول إن احتبار النبي ياء يدعو ويدعو  
المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات - هو شهادة بصوت  
المؤذن لأول بالسلامة من امرأة والشاور الحبيب . فلما عهد محمد عليه  
السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المظفر الحسن . وكان يكرر كل تكرير  
ويستريح إلى كل جميل .

# المؤذنت الأولى

كتب عن الخلفاء الراشدين وكدر لعادة والولاء من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوروبية في أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام ولكن الذي كتب عن صحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة كتلال بن رباح - جند قليل ، وبنو همدان - قليل الذي كتب عن بلاد خاصة فصل في اللغة الإنجليزية للأدب القصصي مكاديو هيرن Latcadie Henry الذي عمل حياً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في جزر الهند الغربية شبعة لفرسان ثم حال بين بلاد الشرق واستقر باليابان ومضى بها بروحه يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هاتماً بفنحات الشرق الروحية سواء هيب عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان .

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التي هي أحق به وأولى وتعد مناسبة نقله إلى العربية ساحة كل السوح في صدد اترجمة لبلال رضى الله عنه برسالة مستقبة به مقصورة عليه وهو عدد ذلك فصل قيم يعيض بالعطف الإنساني والروح لشعيرة ولمكة الأدبية ، رصيف كثيراً إلى عمنا بأثر الأداة الإسلامية في نفوس الأدباء العربيين . ولا سيما لأدباء من طراز هيرن الذين أطمعهم الحصاره العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الرى الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأورب

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold بنى يقول فيها مخاطباً انيرة الإلهية « يا أب عابديك اليوم على الأرض طاف بهم مدثف من الغناء - فجاءة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينه السماء لما

حلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفي أنوار  
الماء نعم . ولو ذهبت هذه وذهبت الأرض معها لبقيت لك  
آيات في أعالي السماء أعظم وأهمي . إذ كل شارقه فوقنا من تلك شمس  
التي تشتعل إلى مطلع النهار وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل  
مساء . هي يدرب « دراويشك » التي تدور في حنقة الذكر حول عرشك  
الوضاء »

لم قال هيرن « إن السطح الذي يجمع لأول مرة بين حدران مدينة  
من مدن الشرق على مقربة من إحدى المنائر على الساحد الجامعة . فها  
تصوته حشدة القواد لذلك الحمار الوقور الذي يبعث به دعاء المسلمين إلى  
الصلاة ، وهو لاشك يستوعب في قلبه - إذا كان قد هيا نفسه للرحلة  
بالفراة وبطاعة - كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، وتنش  
مقاطعها وأحراءها في نحات المؤذن الرنانة حينما أرسل لعجر ضياءه  
المورد في سماء مصر أو سورية وغص بها على المحوم . ولنه ليسمع هذا  
الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح  
سمعه تحت ومع الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غروب الشمس والمغرب  
تتلق بالون القمر والفضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تسرب هذه  
الألوان ابرهيه في صبغة مردوخة من اليوتقان والبررد . ثم يسمعه آخر  
الأمر حين تومض من فوقه ملايين النصارح التي ترصع تلك القبة  
المسحجية فوق مسجد الله لدى لا يرون ، ولعنه يسمع في المرة الأخيرة  
عند نهاية التتميم كلمات مقنعة بالأسرار جديدة على أذنيه فإذا سأل  
عنها ترحمته كما فعل حيراردي برودل جده ولاشك بتفسير كذلك  
التفسير . يامن تنام توكل على حى الذي لا ينام . عطات حلقة بعد

إلى المذاكرة تلك الآيات التي تنقشها في المشرق على بعض الحجارة  
الكريمة ومنها : « لا تأخذه سنة ولا نوم » . . . فإن كان الترحمان ممن يعون  
طرفاً من تدرج الإسلام فبعبه يبينه أن المؤذن الأول - أول من رتل الدعاء  
إلى الصلاة - كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه  
الدعوة - بلال بن رباح - صاحب الصريح الذي يشار إليه للسائح في  
ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقياً من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقيه  
وهو يتحد دين الإسلام ، ويعبرته على الدعوة السوية وجمال النعم في  
رجيع صوته - ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في  
الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتي عام .

وقد رجّع بلال أذنه قبل أن ترسم في ذهن صورة إشارة لأولى ،  
وقبل أن يؤثر القوم حثير المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه  
مسطراً محرماً وهو يطل من علي على سقوف المدينة

واليوم ترتفع إلى السماء مائر لأعداد لها في كل موطن من مواطن  
الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد حادة  
عيران البناء فيحيل إلى من يراها أنها تتلون من الوجد ، كعثانة  
« أوحية » التي رآها فكتور لارغو Lugeau في سنة ١٨٧٧

أما الكلمات التي يرددده المسلمون في أنحاء عالم الإسلام من حيث  
تقوم نبي القرميد التي ترتفع على قنور الصحراء إلى تلك المائر السحرية  
الحالة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند صريح « تاج محسن » بالهند -  
هي ننصها ونصها تلك الكلمات التي ترممها صوت بلال المكين  
ولا تزل للمؤذن شروط ترمي حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان

فعليه ر حفظ لقرب ر ن سره اسمه وسميته عن كل سوء . وأن يكون له صوت واضح جهير وضحة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة . ولكن سرور الصوت الحسن التي كانت تطب من يؤدى في صدر الدعوة الحمديه وللمسلمون على ذكر من صوت ملاه قد كانت ندر وأصعب مما كفى به بعد ذلك وقد روى اشعرى بشاربى لأشهر مصلى الدين السعدى في كتابه بيان لورد غير نادرة وحده تدب على آراء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤدى وقراء آى الذكر الحكيم

قال في بعض تلك النوادر إن مؤدماً في شجار ثعود أن يؤدى الأذان أدء صحيحاً ولكن بصوت كربه إلى كل من سمعوه . وكان صاحب المسجد أمير عادلاً لا يسيء في عمل من أعماله . فلم يثنأ أن يخرج مؤد المؤدى المسكين . وحاطه عن نحو برصيه فقال له ياسيدى إن هذا مسجد مؤدىين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير فهل لك في عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تنك لهم مهمة الأذان فيه ؟ فقبل الرجل عرض الأمير وغادر عذبة إلى حيث شاءت له المقادير

إلا أنه لم يلبث غير قليل حتى قص بن الأمير قائلاً لقد طلعت يوملاى إذ قد رنت لى أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإهم قد عرصوا على عشرين ديناراً حيث كتب على أن يعرفهم فثبتها . فشم الأمير وقال لا بدعوك إذن . فإلى لأحسهم معطيك خمسين ديناراً أو يريد على ذلك إذا صررت على لبقاء هناك

وفى الكتاب نادرة أخرى لا تقل عن هذه في صرافها . يريدنا فيها أن نذكر أن الأسلوب العرسى المنثور في تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف في التلاوت الدينية وحلاصة النادرة أن ه ن من

حفاظ الكتاب كان يحثود لايات بصوت غير جيد فمر به رجل فطر  
وسأله : كم أحرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ لا شيء . قال  
الرجل : وهيم إذن عماؤك هذا ؟ قال : حيا لله ! قال الرجل انظرن  
حيا لله إذن لا تقرأ برحمتك الله .

• • •

وبدا بلال حياته عمداً لأنه كان وليد حارية حبشية . ولم يعرف عن  
نشأته في الطفولة غير الرر البسير ومن وصف سيروليم موير إياه بظهر أنه  
كان فاحم السواد كثيف الشعر وكنت لوحه ملامح الزنوج . وأنه كان  
طويلاً أجناً كأنه الحمل . لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر معتول الحمد  
مثير الأعصاب

وقد كان يدعو محمد الأولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن  
هؤلاء القوم العرباء في رنقة العودية بين ناس غير أهلهم قد تنقروا  
ولا رب يدعو النبي إلى الأيوه العليا التي تكلاً الناس جميعاً كما يتلقى  
الحريج بلسم الشفاء والحزين سموة للعراء .

ولعل بلالاً كان أول من دنا بالإسلام من بني حنيفة ، ولذلك قال  
النبي عنه به أوب ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد لصغير قد تلقى من  
والدته السوداء شيئاً من تلك الخواصر العجبة التي شاعت في الحبشة باسم  
الديانة المسيحية في القرن الرابع مهيأت دمه لقبول وحدانية الإسلام .  
وما هو إلا أن بدأت فترة الاصطهاد حتى اصعب أشده وأقساه على  
هؤلاء العبيد فقد كانت سنة العرب مد عهد بعد أن يحصى الرجل  
دوى قرياه ولو كلفه حبيته من حياة من سفلت دم عرو فهو غير آمن



أن يتردد عليه أهله ونشأرون يستمتع ذلك حرماً سجالات بين العشيرتين إلى  
رمن طويل ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على  
أنفسهم من سطوة السكين الضعيف ، ولم يكن بلعيد مثل هذه الحماية ،  
فتعذرتهم الأيدي بالضرب وتلقوا ندر الموت وذاقوا أمر العذاب معرصين  
لبيران القيظ في شمس الخزيه العربية الساعمة ، فكانت عناية الماء البارد  
واطل الورق والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذي يضاف إليه  
عذاب الجوع وبطناً أشد من أن تدفعها عربة أولئك مساكين  
فأزالوا واحداً بعد واحد يتصوهون بالعبارات التي كانت تملئ عليهم ساء  
لنبيهم ولو حرجت من أشلاء دون القيوب ، وجعلوا يقسمون باللات  
والعزى على صدق ما يقولون ، وطافوا عاد بعضهم فبكى ندماً على ما عرط  
منهم في تلك الحقبة الكرم .

ولكن التي قد استنزل لأولئك المساكين عراء وأما في ذكره القرآن  
عهم ، حيث جاء فيه : « إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله  
وأولئك هم الكاذبون من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه  
مضطر بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله  
ولهم عذاب عظيم » (١)

وقد ظل بلاز وحده ثابت القلب وإنسان فلم يصأ ولم يبل من  
عقيدته ثم الضرب ولا حرانضاً ولا طول التعريض للشمس على بطاح  
مكة المنتهية ، وعمرت كل هذه المحن أن تشي عريته الحديدية ، فلم  
يكن له حوب على كل أمر ينقاه من معدته إلا أن يردد قوله أحد  
أحد ! هشيراً إلى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة بلاز أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها

الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للإشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على حسده الهزبل ضربات العصي من الخشب ، والياط من الحديد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عى توحيد الله الذى لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم - والخبشى المسكين يتلظى من ألم داك العذاب - أن عبره رجل نحيف ابدن صغير القد حميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان داك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبى قحافة ، ويعرف فى التاريخ الإسلامى باسم أبى بكر صديق النبى الحميم ورميله فى ذلك الكهف الذى تقوى الروية إلى العناكب سجنت على مدخله خيوطها لتخفى اللاحثين إليه عمن يتعقبونها ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أبى المخلص أبوى ، وكان أما السيدة عائشة التى قد رها أن تقرن بالنبى وقدر لأبيها أن يخلف النبى على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أعتق كثيراً من ثروته التى تبلغ أربعين ألف درهم فى شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادهم من أجل دحومهم فى دين الإسلام ، ومعظمهم رجاء مهزبل أو ساء ، فكان أبو قحافة يؤحده لأنه ينفق ماله فى إعتاق الساء ولضعفاء ويقوى به : هلا أعتقه فى إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزره ويدفعون عنه عدوك ؟ وكان أبو بكر يحبه : كلا يا أبت إنما أريد بهم وجه الله

ويقول لرواة إن هذا الدب السحى فى سبيل التقوى قد فقر الرجل حتى ليس لثياب الخشنة من شعر المعر الذى ينعق بالسلام .

فلما شهد بلالا فى ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته ثبت الحجاب

وأخذ لتوه يساوم أمية من خلف وأتى من خفي في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلاً ما كان يحطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتي على أمية وابنته يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذي ضا عليه بكل رحمة فلا يبالاها . لما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبه وسنحت به فرصته بعد وقعة بدر الحامية . فوقعته عليهما عباءة بين أسرى قريش ، وشى قلبه أن يطر إليهما وهما يسبحان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الذين يديون به أن يجرؤا الشر بالخير . وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتقاً لوجه الله

وكانه بلال رجلاً قوياً . فلا يفهم وصفه بأمرال في قصيدة الشاعر الفارسي إلا على معنى المهران الذي توصف به الطبيعة الشريفة بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يثبت لسان الكذب وابوشية أن قال قوله في السبب الذي بعث أبا بكر إلى شراء لحشى المكدب ، فرعم من رعم أنه توحى الفائدة ولم يتوح لتقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكنوة حليقة أن تسرى مسراهم في ابنة التي عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الحبير بتصرف التجارة ، ولكن محمداً كان يكره بلعطون به ويوسع الفائلين به تأنيباً وملازمة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة النور . « والذين إذا يغشى والنهار إذا تحلى ، وما حق الذكر والأُنثى . إن سعيكم لشيء ، فأما من أعطى وتقى وصديقاً بالحقى ، فميسره لييسرى . وأما من عخل واستغنى ، وكذب بالحقى ، فميسره للعسرى ، وما ينشئ عنه ماله إلا »



أما كيف حطرت فكرة الأذن فقد كان ذلك شوقي عجب .  
 وفجأه أن السى حين فرغ من ساء مسجده - الذى يعد على رهادة بنيانه  
 مثلاً للأسلوب العربى فى البناء - تيس على الأثر أن دعوة المسلمين إلى  
 الصلاة على لحو الذى اتبعوا قبل ذلك ليست بما يوائم أحوال  
 المسلمين فى ذلك الحين ، لأنها حلو من ذلك الحلال الذى لا عى عنه فى  
 إقامة الفرائض العامة واشعائر العلنية

وحظر للى فى بداءة الأمر أن يتحد بوقاً للدعوة إلى الصلاة . ولكنه  
 لم يشأ أن يحول ابقلة عن بيت المقدس ثم يتحد لدعوة الصلاة أداة كان  
 يستخدمها اليهود فى بعض الصلوات .

ثم حطر له أن يتحد للدعوة ناقوساً يذق فى ساعات معلومات .  
 ولكن لم يجدوا فى امدية من يصنع الناقوس المطلوب .  
 وانه يوشث أن يتحد للدعوة ناقوراً من الحشب . د مسحت فكره  
 لأذن لبعض الصالحين فى رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النام به لنى عى معربه من  
 داره - وهو يسرى فى صوء القراء - رجلاً طولاً فى ثياب حضر بيده  
 ناقوس حميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطول يسأله أن يبيعه  
 الناقوس . قسم الرجل الطول وراح يسأله ولأى شىء نريده ؟ فقال  
 له . إنما أشتريه للى عليه اسلام ليدعوه المسلمين إلى الصلاة

قال الرجل الطول . وكأنه يردادى مقالته طولاً كلا بل أحيرك  
 بما هو أصليح وأحدى . فحير من ذلك أن يادى مناد بالدعاء إلى الصلاة  
 من سقف المسجد كما أصع وانطق فى بدته بصوت زمان عجيب

سماوى لجلال يبعث الوجل الأقدس فى فؤاد سامعه وهو يردد ذلك  
الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقيا الغربى إلى تخوم هندستان  
الله أكبر .  
الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله .  
أشهد أن محمداً رسول الله .

حى على الصلاة .  
حى على العلاج

لا إله إلا الله .

فهب من رقده والسم العجيب يتردد فى أذنيه ، وبادر إلى التنى  
فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه التنى كما يسمع الرؤيا المصادقة التى تأتى  
بالمداية من الله . وتذكر تلك هذه الصوتية الساهرة التى حص بها مولاه  
الوفى بلال . فأمره أن يمدى إلى الصلاة بتلك الكلمات التى سمعها المسلم  
الصالح فى مسامه . وكان النيل فى هريعه لأحير فوعى المؤذن الأوب  
واجب صناعته الحديدية قبل مطلع الفجر . وما هو إلا أن طلعت بشار  
أنور الأولى حتى بهض أهل المدينة من نومهم على صوب الخشبي الساحر  
يردد الأذان من مشرف عدل بخوار المسجد فكان ذلك فاتحة تاريخ  
المنارة الحمينة التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية .  
وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المصااه بنور الكواكب على  
سقف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل ألف ومائتى عام

في حلال تلك القرون جمعاً لم يعرف الإسلام يوماً وحدثاً لم ترتفع  
فيه صيحة الأذن إلى الله .

ولا تزال نبت لأدب نعيم طريق الساعات لسكان مدائن شتى  
لأعدادها وفي المآثورات أنها ستكون علامة للساعة التي يقوم فيها  
القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر - مسيح الديانة الإسلامية - يجعل  
الأذن بصوت جهوى يدوي في أنحاء العالم بأسره<sup>١</sup>  
وما برحت دعوت الصلاة تستجاب في العالم الإسلامي بدقة  
يدهش لها السائح ويعجبون .

وقد شہرت هذه الدقة عن المسلمين في استجابة دعوى الصلاة حتى  
استخدمت أحياء في الإصرار بهم والإعارة عليهم فاتفق في بيسابور -  
تلك المدينة المحبة إلى عطار لروح الشاعر المعروف باسم العطار - أن  
الأذان على لأول مرة عدواً وحتلاً للإيقاع من يستجيبون إليه إذا  
حدث في سنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع  
حكيكرخان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستصصال  
والتهريب عادة فريدة بين الأمم في قسوتها وعدوها ، وهي أن يعودوا إلى  
المدينة فحاة بعد تخريبها ليعملوا السيف يمين رجع إليها من أهلها مطمئناً  
إلى جلاء العدو عنها أو فمن يفلتون على الأبقاض المحترقة لستخرجوا  
فنائس الاعلاق منها فلم عادوا إلى بيسابور عن هذا السحر أمر الزعيم  
المعولي بإقامة لأذان فاقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون من كانوا يعتصمون  
بأخائي والروايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف  
هذه الجموع : لا إهم يقصدون إلى إياديه نوع لإنسان وقاء العالم  
ولا يقصدون إلى السيدة أو الغنيمة .

إن حو المأثورات - بما يحمله من الأشعة والمفالات - ليرى فيه صوت  
للال أندالكما رآ في احم صوت ذلك لغرب و لأكسة الحصر منعثاً  
من عالم فردوسي إلى مسربل بانضياء

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المثاب من السير أن نعرف  
حقيقة صوت المؤدس الإهريقى ولأن نقوم مراباه الموسيقية التي لاشت  
فيها . ولكنا إذا صح لنا أن سندس بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية  
قلأعلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الناريين » المعروفة لدينا  
بالامتداد والحرارة خلافاً لنعمة العربية التي نعرف بشيء من البدة  
والمعومة .

ولا يعورنا السبب لأن نشك في أن أحداً من مشهورين بين أرباب  
صناعة العناء في الجاهلية كان من ذلك العصر - العربي - الذي وصفه  
سائح قرسي فقال : إنه شعب صحاب ، وقد أسأنا الدكتور بيروي  
Perron في كتابه المنع عن النساء العربيات الذي نشر باخراثر سنة ١٨٤٨  
أن معظمهم كانوا عبيد ، وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على  
وجه الإحسان من الخش أو الزوج . ولا يبعد أن تكون القيتان  
المشهورتان باسم حرادني عاد - ولايرل لأعابيهما بقية مروة فتاتين  
حشيتين

وتقول الأخبار ، فيها كانتا عبيد لله بن جدعان من سلالة عاد ، وأن  
فترات التاريخ العربي لم تغل من عتقاء أو حلاسير بيعوا في الشعر أو في  
الفن أو العناء ، ومن هؤلاء الأعربة السود ذلك الأسود الذي نظم إحدى  
المعلقات ورويت له أعان وأماشيد بين أحسن القصيد . ونعني به عنبرة من  
شداد



ومهم حذاف الشاعر الفارسي ابن عم الحسناء . والشعري الذي لم يكن حظه من لشمر بالقبيل ، وقد شهِر الحرب وحده على قبيلة كاسية ثارٌ بحسبه لذى قنبوه لأنه رتضى لبسه زوحاً من غير أكفائها وتقسماً لا يهدأ ، أو يغفل منهم مائة بقبيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وحاء رحن منهم فركمه بقلده العارية فحرج في قدمه وفصل حرجه فلاب فقبل إن الشعري بر نفسه وهو قتل .

ويروى عن السي أنه ود لو شهد عنته من شداد . وعله لم يكن بود ذلك إعجاباً شعره كما وده لعنه محدوى ذلك الفارس اشاعر لدعوته ، د نجح إياها ويقود ها عتقاء الصحراء جميعاً حب لواء بني يشر بالمساواة .

وطوت روح لإسلام شيئاً فشيئاً قصيد لصحراء الخميل بألوانه لساحة لتي تشبه ألوانها . وحرارته التي تشبه حررة ماها ووقدته التي تشبه وقدة سهاها ، ولكن الأعربة لم تزل تعنى وإن كمت عن نظم العلاقات ! ولم يكن بالقبيل عدد المعين السود أو لخلاسين الدين يبعوا في لقرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسيعد من مدحج لسي صادر خليفة عبد الملك مانه لأنه قد أناء لأشراف بسحر غنائه فأحرلوه به انعطاد وضعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبر محجن نصيب بن الربيع قد لقي الخطوة من أمرء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام وقد حشا يريد الثاني ماه درأى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد أمير العاء في عصره أطرب ثلاثة من خلفاء ، وعشى على يريد من الطرب وهو يستمع لعائته ، ومسحه تخبطه التي عثر

ألف دينار جائزة واحدة ، ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الرقاء التي بلغ ثمن القبة منها أربعين ألف درهم - كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحباية صاحبها من حوارى المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشحى القصص العربية عن غرام يزيد بحباية هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات لحورى السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر محفوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤيد من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن حاتم أعظم المعين في عصر الإسلام الذهبي أعطى حارية سوداء أربعة دراهم لبقل عنها نفما غريباً جمعها نترم به وهي تحمل الحرة على رأسها ثم وضع في ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال إنه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجاده عليه أربعة آلاف دينار ومئزر نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدي - الشاعر الفارسي - أرباء أخرى تعلم بها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم مترلهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر لإسلام ، ومن تراث الأرباء قصة رواها في كتابه يستاد الورد من أخوان الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجار في رققة من الشيد الأذكاء ، وكانوا يترنمون في لطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيت رجل من الأتقياء يكرر سلوك الدراويش لأنه يجهل حاجهم ولا يعرف

بحراهم ، فلما بعنا نخل بى هلال برزنا من خيام بعض العرب علام  
أسود ينمى بصوب يستقر الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا  
التي قد أحده الصوت الساحر فالتقى براكبه إلى الأرض وهام في  
الصحراء ، فصحت بالرحل يا هذا ! إن صوت هذا النقي قد عمل في  
الحيوان الأعجم ولم يعمل هيك .

ودالك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحجزوا الإبل إلى المسير  
والصبر على السهر بألحان الحدة ، وقد روى جيتيوس Genius معقاً على  
هذه الواقعة في ترجمته لستان الورد ( امستردام ١٦٥٤ ) قصة أخرى  
أعجب من الأولى فقال « إن مؤلفاً من الثقات نزل بصياقة رحل في  
الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجهده عند ربحي وسأله أن يتشفع له  
عند مولاه في دونه ، فلما حصر الطعام أبى المؤلف الصيف أن يمد يده إليه  
أو يصطحب صاحب الدار عن ديب مولاه فقل له صاحب الدار إن  
هذا العبد حيث صبح عليه ماله ررده إلى أسوأ الحال ، وقد منحه الله  
صوتاً حميلاً فألقه حادب لإبلى فأجهدوها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم  
واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلت أن يعقت حميماً ساعة وصعت  
عها أحبالها لهرط مناتها من الإعياء . وقد وحب لك حق الصيف  
فتفتت شعاعتك ونعميت هذا العبد الخبيث من الجراء »

ومن الوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شأب الحدة في  
المشوى نادره حكايها حلال الدين في تاريخه حيث قال إن المصور  
أجاز سالماً الحادى بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن يسقط  
عن جمعه ، فقال سالم : لقد حدوث ضام فأحرقى بعشرة آلاف «  
فما لاشك فيه أن المعين في الخاهبية وفي الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من لعباء ومولدين . وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من  
دوى الهبات الصوتية العجوة ولبعوا الرقعة بمهارتهم في لصناعات  
الموسيقية . فلا داعى لمثلث في ملكة العناء عند بلال ولا في قيام  
المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح . . . وبقي أن ننظر هل  
هو الذى يُدعى الحن لأذن الذى مضى عليه التؤديد من بعده أو أنه قد  
أدى لأذان كما نمر به وأوحى إليه .

وعلىنا أن نذكر « أولاً » أن العرب لأقدم مع حساسيتهم الموسيقية  
م ترتفع الموسيقى يسهم فوق طبقة التجويد الصوتى إلا في المهرط المادى .  
وعاية ما بلغوه في هذا باب يشبه المصداحات الكورسيكية الحديثة عما فيها  
من الرركشه والتزديد على هوى المعنى أو على هوى السامعين فتعاد  
الكلمة نواحدة مرة بعد مرة يتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه  
حتى يستغرق إلقاء لقطعة الواحدة من النظم بصع ساعات  
ولا تتراب هذه السرعة في العناء باقية على حداها بين العرب لمحدثين .  
فقد صلق بيرون Perron حين سأل أى سائح في مصر لم يسمع كلمة  
يالليل تعد مرة بعد مرة ونصف ساعه أو تزيد ؟

ولأغلب أن الأنعام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية  
على ثلاثة أنواع متصيرت وهى ما يسمى بالنغم البسيط ويعنى به في  
مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والجداء  
وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وبرجعات  
صوتية كثيرة . وما يسمى بالخميف وهو يستحلف السامع إلى الطرب ويهره  
ويحرك أشجائه ويخرجه عن الوقار  
وبما كان بلال عبداً وكان ولأرب في بعض أوقاته سوق لابل فمد

كان على الأرحح يتعنى بالحذاء ويعالج النعم السط . ولكنه - بسلفه  
الإفريقية الى طبع عيب أبناء جلدته . رعى وجد من وفته متسعاً نتردد  
لأصوات المركبة واستعاع من ثم أن ينسج لأذان في أحدى المعروفة  
فلا يحى أن النعم الذى سمع فى ستم فلما يشب فى اذاكرة ، وأن  
النعم الذى سمعه لمسلم الصالح من لطيف العرب صاحب الثياب الخصر  
بصعب أن يعلق بذاكرته ويخرى على سسه وخريفص رؤيته على السى  
( صلوات لله عليه ) .

فلا بعد إذن أن يكون بلال قد جمع لأذان وصاغ منه اللحن الذى  
أوحته إليه سيقته الإفريقية الأبدية فأقره السى عليه كما أقره على ماأصفه  
بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث راد عليه « الصلاة خير من النوم »  
ولا جرم يقره محمد على أسبوت بريله وهو الذى كتب بقره إليه ويسأله  
الرؤى فى مهمات الأمور وقد كان يثثره على غيره من المؤددين ، فلم يكن  
يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندما للأذن بعده أن يدعوا إلى الصلاة وبلال  
فادر على الدعاء إليها .

• • •

ولم بلال النى عن كتب صوال حياته فكان يوقط النى بعد  
الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من حوامع حكمة والتقوى . فاد  
احتسج المصلون بالحدس بجهت الأنظار نحو الإفريقى لواقف بالصف  
الأول يسلوه فى حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان  
الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع لشمس مع  
الأسقف فى الصلاة المسيحية

ولما تعاطعت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

مؤداهم وأكبر من الأذن فكان حارر بيت السى وأميته على ابدل  
الذى يصل إلى يده . ونفى من السى مغابيح بكعة يوم دخل مكة في  
موكبه الظاهر وكان هو الذى أقام لأذن على أعين مكاب في تلك السنة  
التي اشهرت الآن في أنحاء الكرة الأرضية وكان هو الذى دعى إلى الصلاة  
يوم حصر إلى المدينة ملوك حصر موب للمحور في الإسلام . وكان هو  
الذى يدعو إلى الصلاة حين تحتشد فرسان الإسلام بالصحراء لقتال  
عائذى الأوثان

وتروى عنه أحبار شتى بعد وقعة بدر وفتح حير تشف عن بغض  
شديد لأعداء ولية ولحقس إليه لأحاجة ما في هذا المقام إلى تفصيلها -  
وأجمل من هذا أن يذكر للأسود الأمن عبرته على شخص السى يوم  
ذهب معه في حجة الودع فظل يحرص على راحته طول الطريق ويمشي  
إلى جانبه مصلاً يراه ستار في يده بحميه ومع الطهيرة ، ولعله في تلك  
الرحلة قد عبر في الوادى مقدس تلك الأماكن التي كان سادات عرش  
يعذبونه هوى حر شمسها .

ثم نرى محمد ، عليه السلام « فسكت الصوت العجيب ودعى  
مؤدبون آخرون للدعاء المسلمين إلى الصلاة لأن لالا عاهد نفسه ألا  
يؤذن لإمام بعد نبية ووليه .

ولا تعلم كم من الوقت قصاه لال في صحبة أبي بكر بالمدينة .  
ولكنه ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان به  
من حلال القدر في أظفارهم ماحولة أن يحط امرأه عريه حرد لأخيه  
الأسود وهي رعاية عظمى بين قوم لا يراون بمحرون بصحة السب  
ويسمون أنفسهم بالأحرار أى المختص من السب الخليلط

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالاً قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة لأول فيها أراد الخليفة العادل الصارم في عدله عمر بن الخطاب - أن يحاسب « سبع الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذي نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لنسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل . حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم أنه كان يصحب الحشيش وأنه كان قد منح بحوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل حياة العامة كل الاعتزال . وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وحالد بالنسي في رصواذ ربه كما لحق به آخرون ممن حاهدوا معه في معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الحيل الحديد على عطف الحيل انذى تقدمه في المعيشة ، فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك الساطة البدوية التي درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الآسيوي لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا لخليفه عمر وهو ينظر إليها ويتحشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفي حلال ذلك كانت لعقيدة التي تعدّ بلال من أحبها ودان بها رسماً وهي لا تتجاوز حتى أي طاب - قد حاورت انزود والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدوا قس أن يسلم روحه إلى ذلك الذي لا ينال وهي تسلك سبيلها إلى القارة الأفريقية فتصمم إلى فتوح الإسلام وبهذا أصبحت دعوته الأولى - دعوة الأداة - مستجابة بين أقوم من المتعديين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع هرسا الصحراء

العربية أبوب كابل ولعل ولدنا من ذرية بلال قد عاش حتى رأى  
الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب وذلك  
ما بلغته المترح الإسلامية - حتى في السنة الثانية عشرة للهجرة - لخلق  
أن يسحب في صدر الشيخ الحرم حمية اندين التي عمر بها ما بين  
جماهيره

• • •

سكت صوت بلال عن ترويض الأذان بعد سه ووليه - لأنه رأى في  
حماه التقي أن الصوت الذي أسمع سي الله ودعاه إلى بيت الصلاة  
لا يبعي أن يسمع بعد فراق مولاه وثنا أن تحيله في مأواه ماشام وأنه  
لندعي مراراً إلى ترويض ذلك الدعاء الذي أعلاه لأول مرة تحت فقه السماء  
المضاعة بمصاييح الكواكب ، وبه ليصطر مرراً إلى الإباء والاعتذار  
لأولئك الذين كانوا يحملونه إحلال نقديسين وبودهم لو بدلو أمواتهم كلها  
ليسمعوه

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء انقوم أن يسأل بلالا  
بإمامة الأذان تكريماً يحضر أمير المؤمنين ، فرضى بلال وكان أذنه لأحير

• • •

فقد كانت عيرة فتيا الدين الحديد في تلك الأيام عيرة يوشك ألا  
تعرف الحدود ، ومن المحقق أن السأ الذي جرى سهم مشراً باستماعهم إلى  
أذن بلال قد أذكى في نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حمية مفرحة  
لا تظن أن العالم المسيحي قد شهد لها منيلاً في غير أيام الصببيين  
فيما شاعت البشرية بين أساء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوي لاح  
بأكثري ولاشت أن انظر سماع هذا الصوت عتيمة مقدسة تكاد أن



تصارع الظفر سماع السى علته اسلام وأب أفر أحدوة في الحياة  
تروى بعد اسير الصول للأباء، وعنده وقد يكون في مدينة من تلقى  
البأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراق، ولكن الأكثر الذين  
تراحموا في صمت وحشوع وحنى القلوب مرهق الآداب سماع  
« انكسيرة » المعروفة قد حذرهم ولا رب شعور أعظم وأقوى من أن يلم  
به السيد وتركى روايات، بيان هذا الاعتقاد، لأننا نعلم من تلك  
الروايات أنهم بعد لحظة الانتظار في نيت المحظة لم يلبثوا أن يمعرونة  
الصوت الجمهورى تشق حجاب السكون وتتأق من حجرة الشيخ  
الأفريقى بتلك الكلمات المحبوبة لناقية حتى نكى عمر ومن معه وتحدث  
الدموع على وجوه أولئك الأنطاب المخاضين ورتفع لفرحتهم شبح عان  
عطى في المسحده على دعاء الأذان الأخير.

أى هذان موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان  
صدى نال في ذلك لأدب، وأن يسمع الكلمات الخالدة كما كانت  
تسمع من أول المؤذنين ؟

ولاحظه بنا إلى أن يقول إنها أمية مستحبة، لأن في السوطة أو  
تدوين الأسماء لم يكن معروفا يومئذ بين العرب، ولم تكن لهم وسيلة لنقل  
الصوت من حين إلى حين غير بعض الذاكرة، ليس في وسعنا أن نجرم كل  
الحرم عما نرى أو نسمع من نوح نال بالأذن ونكسر جمع في النص وقد  
يعنى في هذا الباب ولدينا من الأساليب ما يمكن ترحيح بقاء الأصوات  
بعضاً وألف سنة مخبوءة في الذاكرة بغير تدوين، ولعلنا نستطيع القول بأن  
بعضاً من السمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان، وليست  
عبرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيره العبريين، فلا حرم تسبح

لأنهم الأذان فرصة للبقاء و الساكنة كالفرصة التي سنحت لأبائهم  
إسرائيل .

من الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأذن سمات مشابهة للمجتمعات  
التي ابتدأ بها بلال . إذ كانت لكلمات معناه باقية يعبر بتعديل  
ولعل مصر التي فتحت وبلال يقيد الحياة مصر بلد الخلود الذي  
لا يقبل التبدل . قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة  
الثانية بعد الهجرة المحمدية وقد سمعت لأذان من مؤذن "معونه من  
بلال .

وبرضينا أن نعتقد أن بلالا معناه قد أدى لأذان على نحو يشبه أداء  
المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو *Philoteau* وهو أنعام تذكر السامع  
برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع العناية في  
تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذي سمعه فيلوتو أقرب إلى نتمس من المؤذن الذي  
سجل لين *Linn* بغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهي وفي  
السمع انتظار لبقية ثانية ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل  
ذلك الأذان لما فيه من نغمة السمع التي بألفها العرب ونشبه تلك الخفايا  
مستعربة في الأصداة الإفريقية إلا أن السمع الآخر مع هذا يعبر على  
ساحته عن جهل ووقار ويوحى إلى معنى العمادة الخالدة التي لا نهاية لها  
والتي هي "بد" في ابتداء يعبر حتام . كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل كما  
بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب



من الصفحات التي مرت بنا مترجمة من الإنجليزية عن الكاتب الألماني لفيكاديو هيرن - يتبين للقارئ منزهة الأدب في الكتابة والتصوير وهو على الأغلب مترجم الحيدل وانهار والمعلم على الحياة الشرقية التي تتمتع بتواريخ الروحانيات والدينيات على الإجهاد ، وهو مع تحفته في مراعاة المصدر التي تعتمد عليها م يحل من هفوة هنا وهناك لا يعيب سوء النية لدى تشع عنه أقول الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوفعه في الخطأ حب انجار أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغنى هذا البقل أمتع الذي جني به ذكرى المؤدب الأول عن تعقيب تصحيح فيه من مقاله ما يحتاج إلى التصحيح أو الاستدراك .

لن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضى الله عنه وليس له عقب كم ورد في اس هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بين له أو بنات في كل مقارناته .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أبا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أحوه في الإسلام على سنة المؤرخة التي كان أنسى ( صواب الله عليه ) يعقدها بين الصحابة من نصارى ومهاجرين .

غير أن هفوته الصغرة هي مدحه في تعليل كثرة معيّنات والمعنيات بين الموالي في بلاد العرب وقتهم بين أبناء البلاد لأصلاء فإنه يفتخ في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة السنية عند العربي لأصيل ، وأن الموالي والحواري من اسود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثير اشتعاهم من العاء في الحجار بم في غيره من الأقطار الإسلامية .

وظهر أن هذا انتعاش بعيد من الصوت . لأننا سمع العرب  
اليوم في حديثهم وبنائهم كما سمعوا قبل الإسلام فلا نجدهم قصيرين في  
الحملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهازة الصوت وقوته  
إلى طعمه من الطيبات . ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة البناء  
لاعتقادهم في مداوتهم أنها صناعة أثوية لا تنبئ بمدرس بدمدم ولا  
بمرح الكريم . وأن اسادمة والتسلية يجمل لسمع أوجع المنظر أدى  
إلى عمل النساء منها إلى عمل الرحان ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا  
يحمدون من الرحن الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل  
بين رحى الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان سير لقوافل بالتجارة هرباً  
آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الإسلامية . فكان البناء  
مقصوراً على الموالى والحوارى أو على المحتشيين الذين يتشبهون بالنساء في  
المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلبون الوحوش وعلمهم أحد  
الأوربيون هذه العادة وعمموها في أرض أصحاب الفنون من موسيقيين  
ومصورين ومحتشيين ، وظل إرسان الشعر وظلاء الوحة شائعاً بينهم إلى زمن  
هزب . بعد أن تقوى من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل  
انصاعة في مدنة الحجاز .

فكثرة المغير بين الموالى والجوارى إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز  
الأداة الصوتية في عرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء  
لا ينكرونها وهي الحناء والنصيب وما إليه ، فكانوا يسعون بها أقصى مدى  
الصوت الإنساني في لعل والقوة ولا متماد ، وقد سمعناهم في البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهورية تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر  
مكاناً على امتلاء .

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع هذا للآذان لأنه عرف قبل  
ذلك في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإيل وحداه في بوادي الحجاز أو في  
الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل  
بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، وإنما عرفت  
جهازة صوته في الحرب والسلام وحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام  
للآذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من  
أسباب ذلك الاختيار .





## فهرس

### صفحة

٥	كلمة تصدير...
٧	مسألة العنصر...
٤٧	العرب والأجناس...
٥٣	الرق في الإسلام...
٦٧	نشأة بلال...
٧٩	إسلام بلال...
٩٣	صفات بلال...
١٠٣	الأذان...
١١٣	المؤذن الأول...
١٣٧	تعقيب...



رقم الإيداع : ١٩٦٢

الترقيم الدولي : ٥ - ٢٣٩ - ٢٨٦ - ٩٧٧ - I.S.B.N